الممالك الملعونة

روايـــة

الطبعـة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــوان العـــرب
للنشر و التوزيـــع

ملحـوظـــــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: الممالك الملعونة

اســـم المـؤلف: محمد غربي العزيزي

التصنيف الأدبي: رواية

رقـم الإيـــداع: 20081 / 2020

الترقيـم الدولي: 3 - 81 - 6830 - 977 – 978

تـصـمـيـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقـوق الطبـع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجـوز بأي صورة إعادة النشـر الكلـي أو الجزئـي، أو نسـخه أو تصـويره أو ترجمتـه أو الاقتبـاس منـه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

الممالك الملعونة

روايـــــة

محمد غربي العزيزي

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع

حقوق حلمك

إهداء

"إلى روح أبي الطاهرة، إلى من علمني أن طريق الحياة يبدأ من صفحات كتاب أو رواية، وأن طريق المعرفة أطول من أن نختزله فقط على مقاعد الدراسة"

محمد غربي

****

كلمة المؤلِّف

قد يُعتَبر الغوص في ثنايا التاريخ وسبر أغواره، واستلهام أحداث أو وقائع معينة أو تصوير عهد من العهود البائدة، واسترجاع سيرة أقوام وأمم خلت، وتضمينها في رواية أو قصة نوعا من التوثيق أو التأريخ، لولا أن الرواية التاريخية تبقى ككل فن أدبي يمتزج فيه الواقع بالخيال، فهي كما قال أحد النقاد تاريخ متخيّل داخل التاريخ الموضوعي، فلا يتقيد الكاتب بنقل الأحداث كما هي، ولا يلتزم بتحري الدقة والواقعية، وقد يسير به خياله إلى أبعد من ذلك فيستحضر أحداث زمن قريب ويسقطها على زمن بعيد أو العكس، وقد ينقل وقائع وأحداث معينة من مكان إلى آخر، وهو الأمر الذي يُخل بشروط الصدق والأمانة، فلا يمكن معها اعتبار العمل الإبداعي وثيقة تاريخية يُعتدّ بها. غير أن هذا لا يمنع أبدا من الاستعانة بالرواية التاريخية للتعرف على عادات وتقاليد الشعوب والأمم الغابرة، وأساليب عيشهم وحضارتهم وتراثهم الإنساني وأخذ الدروس والعبر منها.

كانت هذه توطئة لا بد منها عزيزي القارئ حتى أو ضح لك أن وقائع الرواية التي بين يديك وإن كانت ترتبط بمكان وزمان حقيقيين، وإن كان لبعض شخوصها حضور في الواقع ومجرى التاريخ، إلاّ أنها ككل عمل أدبي إبداعي تبقى وليدة خيال الكاتب وليس لها نصيب من الحقيقة إلاّ في

ذلك الشق المتعلق بالجانب الإنساني والاجتماعي الذي ميّز حياة أهل المدن سدوم وأخواتها في غابر الأزمان.

****

الفصل الأول: خروج نازر

تبتدئ القصة هناك في الشرق القديم في ذلك الزمن البعيد، منذ نحو ألفي عام قبل ميلاد السيد المسيح، بمدينة سدوم[1] جارة عمورة[2] وأدومة وصبوئيم وصوغر ، ممالك غور الأردن القديمة. تلك المدن التي وُصِفت بأنها كجنان الرب في الأرض، حباها الله ببركته فأخصب ترابها وفجّر ينابيعها، وأضحت سهولها رياضا خضراء، ومروجا غنّاء، بساتينها مورقة طوال العام، ومراعيها معشوشبة دسمة، ضيعاتها ذات زهر ونخيل وشجر، فكانت موطن كروم التين والزيتون والأعناب وشجر اللوز والزهر والرمان. في تلك الأرض كانت غابات النخيل تمتد على مد البصر، وتكتسي حقولها بمحاصيل القمح والحنطة الوفيرة، أما سهولها فقد احتضنت أجود المراعي لقطعان الماشية من الضأن والبقر والدواجن.

كان أهل تلك المدن أصحاب حضارة ومدنية، تطورت لديهم جميع فنون الصَّنْعة والبناء والعمارة، فشيّدوا الأبراج العالية والقلاع المحصنة المنيعة، والقصور الباذخة المترفة، وكانت بلادهم ملتقى لذوي المال والتجارة تقصدهم القوافل من كل صوب وحدب، تقطع الصحاري لتحمل إليهم أجود وأثمن البضائع والسلع مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، حتى باتت أسواقها مضرب المثل في الرواج والغنى والازدهار ومدنها مثال للرفاه ورغد العيش.

يحكى أن رجلا مُسّنا من أهل سدوم يُدعى نازر نَهل من حكمة الرب، وعرف دين التوحيد واطمأنت به نفسه، كان مُتَّبِعا لوصايا الصالح متشولاخ[3]، وسائرا على عهد نوح النبي، وكان شاهدا على تحول أهل سدوم وعمورة وجيرانهما عن طريق الرب، وكيف أنهم لم يأخذوا العبرة من هلاك الأمم التي سبقتهم، ولم يتعظوا من حدث الطوفان العظيم الذي أغرق أسلافهم ومحقهم عقابا لهم على إمعانهم في الكفر وجحودهم بنعم الرب.

كان نازر حكيما ورعا وتقيا، وقد ساءه ما بات يراه من فجور أهل تلك المدن وفسقهم، وما باتوا يقترفونه من جحود لِنِعم الرب الكثيرة والكبيرة التي أسبغها عليهم بعدما أصبحوا يأتون كل منكر في نواديهم، حتى سكنت الخطيئة نفوسهم وجرت بها دماؤهم، واستمرؤوا الرذيلة وباتوا عبيد شهواتهم المنكرة، وزادوا عليها خروجهم عن دين التوحيد، وكفرهم بالرب الواحد، وإنكارهم لوصايا النبي نوح والصالحين من بعده، بل وأمعنوا في جحودهم بأن اتخذوا إلهاً آخر من دون الله يسمونه بعل [4] يعبدونه ويقدّسونه وما لهم به من سلطان، بل وزادوا في وثنيتهم بأن عبدوا معه النار، فكانوا يُقدسونها أيضا، واتخذوا لذلك كله معابد وهياكل يقوم عليها كهنة يقودونهم للهلاك ويُزَيِّنُون لهم طريق الضلال.

أيقن نازر أن غضب الرب الواحد وشيك وأن انتقامه من السدوميين ومن أهل المدن الكافرة واقع بهم لا محالة، وأن لا مناص من الخروج من المدائن الضالة والهجرة بعيدا عنها علّه ينجو بنفسه وأهله من

الهلاك، وما هي إلاّ عشية وضحاها حتى حمل أهله وكل ما يملكه من مال ومتاع وخرج مرتحلا متوغلا في الصحراء إلى الغرب جنوب وادي الأردن، سار عشرة أيام بلياليها حتى قطع وادي عربة ووصل إلى مفازة بين الجبل وصحراء النقب في منطقة جرداء قاحلة لا زرع فيها ولا شجر، اختارها لتكون موطنه ومستقره هو وأهله إلى آخر العمر.

كان لـنازر زوجة صالحة ومطيعة، اسمها راهين كانت مُباركة النقيبة، أعانته على دينه ودنياه، ولم تعصِ له أمرا أبدا، رزق منها بولدين على عشر بنات، فأما الولدان فهما آبيثار وآرميا، نشآ في كنف أبيهما الصالح، الذي رعاهما وأحسن تربيتهما حتى كبرا وصارا سندا له، فقَوِيَ بهما عَضده وشدَّ بهما ظهره، وأخذا عنه الحكمة وعرفا منه دين التوحيد، وأخذ عنهما عهدا وميثاقا أن يسيرا على نهجه وسيرته ما بقيا وألا يفارقان دينه ولا يهِنا في تعظيم حرماته.

اشتغل آبيثار وآرميا مع والدهما في زراعة الأرض والرعي، حتى صارت صحراؤهم القاحلة جنة خضراء، فيها من كل أنواع الفاكهة، وقطعان الماشية والأنعام، وأفاض عليهم الرب من خيرات السماء والأرض كخير جزاء لصلاحهم وصلاح أبيهم الذي ترك ما كان عليه قومه، وفرّ بدينه إلى فيافي الصحراء.

لم يكن نازر الحكيم وحده من هجر بلاد سدوم وانقطع عنها في أقاصي كنعان[5] فما لبث أن لحق به بعد خروجه نفر يسيرٌ من الناس من

الذين عرفوه عن كثب وعرفوا ورعه وتقواه. وكان كل من لحق بـ نازر إلى النقب ممن ثبتوا على دين التوحيد، هم أيضا خرجوا للنجاة بأنفسهم من فساد أخلاق أهل سدوم وأخواتها، هاربين من فحشهم وفسقهم، وكانوا جميعا ينشدون الصلاح ويرجون بركة الرب الواحد ورضوانه.، فاتخذ نازر منهم أصهارا، وزوَّج بناته من أخيارهم، حتى رزقه الله ذرية مباركة حفدة بنين وبنات، وصار هو سيدا له قوم وعشيرة يتبعونه، ويقيمون الصلوات وراءه ويُخلصون في الدعاء ويعلون شأن العبادات.

ذات ليلة من ليال أيَّار المنتشية بنسائم الربيع الناعمة، أحس نازر بأن ساعته قد دنت وأن نقيع أعشاب البابونج والميرامية وإكليل الجبل لم يعد قادرا على تسكين الآلام التي ألمَّت به ولم يعد ينفعه في تنشيط جسمه الذي ضمر ونحل حتى اهترأ. لم يكن الرجل الصالح يخشى الموت فقد عاش حياته كريما مستظلا برضى الرب وسائرا على نهج أنبياءه، وكل ما كان يخشاه هو أن يحيدَ ولداه وعشيرته عن نهجه بعد موته وأن يتركوا هذه الأرض المباركة التي أورثهم الله إياها، أو أن تغريهم سدوم والممالك الضالة بمدنيتها الزائفة وملذاتها الزائلة وأن تزيغ أنفسهم عن الطريق القويم فيحل بهم سخط الرب وانتقامه.

لم ينتظر نازر أن يبزغ الفجر فجمع أهله وولديه وكل بناته وأصهاره وأحفاده وأوصاهم بأن لا يُفرقوا الشمل وأن يحفظوا جمعهم المبارك وأن يرعوا عهده إليهم ولا يخرجوا أبدا من أرضهم، فمازالت رعاية الرب

ترعاهم وعناية القدير تغشاهم ما داموا يحفظون طريقته ويُنفذون وصيته، وأن العناء والتعب والشقاء سيكون مصير من يخالف النهج ويُفرّق الجمع أو يخرج من الجماعة.

كانت صلوات الشكر والحمد هي آخر ما لهج به لسان نازر إقرارا بنعم الرب الكثيرة ، فقد عاش كريما وها هويقضي ماجدا قريرا.

مات نازر وأسلم الروح لبارئها، وأقام له أهله تأبينا يليق بمقامه وحملوا نعشه على الأكتاف، ودفنوا جثمانه الطاهر بمغارة ذات التراب الأبيض في أعلى الجبل، اختارها بنفسه قبل موته وأعدها لتكون مدفنا له ولأولاده من بعده، وها هو اليوم قد ووري جثمانه الطيب الثرى، وكُتب على قبره تلك الحكمة التي حفظها عن الصالحين : "هكذا يا ابن البشر تحتضنك الأرض، وكما خرجت من التراب فإلى التراب تعود" هذه كانت وصيته وهكذا برّ به أبناؤه.

عند المساء وبعد انتهاء مراسم الدفن عاد آل نازر إلى البيت الكبير الذي جمعهم مع أبيهم لكن لم يكن جَمعَهُم الليلة كَجَمعِهم بالأمس، فكأن السماء حزينة والهواء صار مرّاَ يخترق صدورهم ويثير الحزن الثقيل في نفوسهم. كانت أرملته راهين أكثر من استبد بها الحزن، وهي تتساءل : "تُرى كيف ستكون الحياة بعد غياب الرجل الصالح؟ وهل ستبقى سكينة الرب وطمأنينته تغشاهم؟ وهل سيحفظ الأبناء عهد أبيهم؟" كانت هذه الأسئلة وغيرها تتضارب في فكرها وهي التي غدت اليوم عجوزا

متعبة ومنهكة، ولكن رغم أن موت زوجها كان قاصما لظهرها مؤلما لنفسها، إلاّ أن عشرتها الطويلة معه جعلتها تنهل من معين إيمانه القوي وترتوي من حكمته، حتى أضحت صابرة محتسبة على المصيبة التي حلّت بها، هي نفسها تلك الحكمة التي ألهمتها أن دوام الحال من المحال وأن ما بعد الكمال لا بد وأن يكون النقصان، لكن من أي جانب سيكون؟ ومتى سيكون؟ الرب وحده يعلم. أجالت راهين بنظرها على طول تلك الجنان التي أو رثها إياها زوجها، كان ثغاء الماشية العائدة من مرعاها عند المغيب يتناهى إلى أسماعها حزينا بطعم الشفق الكئيب الذي لوَّن المكان بلون برتقالي غامق، كأن الشمس تذرف دموعها وتبكي لرحيل الرجل الصالح، كانت تنظر لأحفادها وهم يحملون دلاء الماء من النبع ويجمعون ما جادت به عليهم جنتهم من فواكه وخضر وحنطة ليضعوها في المخازن، استعدادا لصائفة يبدو أن قيضها يكتم الأنفاس من بعيد.

مرّ عام كامل على وفاة الشيخ الصالح ولا شيء تغير لكن لا شيء سيبقى كما كان. أشرقت شمس يوم جديد وصيف جديد على قرية نازر صعد الجميع إلى الجبل لتخليد ذكراه السنوية وقد أضحى ضريحه مزارا لكل طالبي البركة والحكمة وملجأ لعابري السبيل الذين ينشدون قليلا من الظل والراحة، يضعون عنده أحمالهم ويريحون من الأثقال التي أنهكت أجسادهم. تقدم آرميا الجميع وأخذ يتلو بعضا من صلوات الأنبياء والصالحين على روح أبيه، فقد كان أكثر الناس تمسكا بسيرة والده ونهجه ولا أحد ينكر أنه أخذ

عنه الكثير من صفاته، كان متدينا وتقيا، عطوفا على الكبير، حنونا على الصغير، بارّا بأمه ، كريما مع أهله.

على الجانب الآخر من الجبل كان يقف آبيثار يتأمل قبر أبيه والصحراء القاحلة الممتدة على مرمى البصر والتي تحيط بهم من كل جانب، رأى كل شيء ولم يرى الجنة الخضراء التي أهداها لهم الرب وسط الفيافي، تذكر سدوم وترفها ورغدها، استرجع بمخيلته أبراجها العالية وخاناتها وقصورها البديعة ومستراحاتها وحوانيتها وساحاتها وميادينها، وأسواقها العامرة، في هذه الأثناء كان لا يزال آرميا يقف على قبر أبيه يتلو تراتيله: "إلهنا وسيدنا ليتقدس ذكرك في السماوات، ولتعم بركاتك أطراف الكون، أنت الرّب المجيد سيدنا وصاحب مصائرنا، وراعي أرزاقنا، أنت الراعي الذي نسير بهداه وبركته، أنت الرب الذي قال لِعبده ارجع إِلى أرضك وعشيرتك، وانصحهم وخذ بيدهم إلى الصلاح، عظيمة هي صنائعك وخفية هي أَلطافك"... اخترقت هاته الكلمات على حين غرّة سمع آبيثار وعقله، كأنما يسمعها لأول مرة، واستقرت في وجدانه ودغدغت مشاعره، بل وأطلقت العنان لخواطر كان يحاول كتمانها طوال عام منذ وفاة والده. نظر إلى أخيه آرميا وحدّث نفسه قائلا : "نعم لقد قالها (أنت الرّب الذي قال لعبده ارجع إِلى أَرصك وعشيرتك).. لا يمكن أن يكون هذا الأمر مجرد صدفة، إنها بشارة وأمر من الرب".

اعتبر آبيثار ذلك إيذانا له بالإفصاح عما كان يجول في خاطره وتحرير حلمه بالعودة إلى مدن جنوب الوادي في غور الأردن، فابتهجت أساريره وبشّ وجهه، وحمل إكليل الزهر ووضعه على قبر أبيه ومن حوله الشموع بيد أخواته وأطفالهن الصغار، وبينما كانت الأنوار تملأ المكان وتضيء كل ركن من أركان المغارة، كانت شموع العهد تنطفئ في نفسه والوفاء يغادر قلبه من حيث لا يدري.

انقضى اليوم وانقضت معه مراسيم الهيلولة وعاد الجميع إلى البيت، ليتحلقوا أخيرا حول مائدة العشاء.

لم تطب نفس راهين هذه الليلة بشيء، فقد كانت صورة زوجها الماثلة أمام أعينها تُبحر بها في عوالم متشابكة من الأفكار والذكريات، ظلت ممسكة بعكازها، شاردة الذهن وعيناها غائرتان تسبحان في بحر دموع من كثرة البكاء، لم يقطع شرودها ذاك سوى صوت ابنها آبيثار الذي طلب منها ومن جميع إخوته وأصهاره أن يُنصتوا إليه، فما سيقوله ولا شك سيكون وقعه ثقيلا عليهم، نظر إليه الجميع باهتمام كبير، أخبرهم أنه آن الأو ان لتخرج حكمة الرجل الصالح من فيافي الصحراء إلى من هم بحاجتها من أهل المدن وأنه آن الأوان ليرحل عنهم ويغادرهم ويقوم بواجبه كابن الحكيم البار به، الذي يبلغ رسالات أبيه وينشر حكمته بين الناس، فإرادة الرب لم تكن أبدا لتحكم عليه أن يبقى منفيا في أقاصي الصحراء يعيش ويدفن فيها مثلما دفن أبوه، أخبرهم أن عين الحكمة هي أن يرجع إلى قومه وقوم أبيه

وأن يكون معهم ويلقنهم ما جهلوه من عقيدة الرب وينشر بينهم دين التوحيد حتى يصل بذكره وذكر أبيه إلى أقاصي الأرض من كنعان إلى الأمم كلها.

نزلت كلماته صاعقة على كل الحضور ما عدا أمه العجوز، فلم تتفاجأ أبدا بما سمعت، لقد قرأت بفراستها كل ما كان يدور بخلده منذ زمن، وعرفت أنه ما كان يأنف عن العمل في الأرض ولا يهتم بأن يكدّ أو يجتهد كباقي أهله طوال العام الماضي إلاّ لعزمه مفارقتهم. نظرت إليه نظرة قاصمة كـأنها اطّلعت على دواخل نفسه، و متأكدة من عدم صدقه وزيف ادعائه، فلم يتمالك نفسه أمامها، أحس أنها كشفت عورته فطأطأ رأسه. سكت الجميع من هول الصدمة، لم يكن أحد يتوقع أن يقوم آبيثار الابن البكر بنقض عهد أبيه وهو الأولى بأن يرعاه ويخلفه في سيرته، وسرعان ما انتفض آرميا في وجه أخيه غاضبا وهويقول :

- كيف تدعي أنك تريد أن تخلد ذكرى أبينا في الأرض وأنت تنقض عهده؟ ألم يأمرنا بألاّ نفرق الجمع؟ أهكذا نحفظ عهده ونسير على نهجه؟ ألم يوصينا أبونا أنه من كان مخلصًا ونقي القلب يسند نفسه كما يبني أخاه، أما الضال فهو الذي يهدم حياته ويضل عن الطريق القويم. إنك تضل عن الطريق يا أخي إذ تختار مفارقتنا والخروج من أرض ابيك المباركة التي رواها بإيمانه وصلاحه طيلة سنين عديدة.

لم يُلقِ آبيثار بالاً لكلام أخيه، كانت نظراته متركزة فقط باتجاه أمه العجوز التي ظلت صامته قبل تستجمع نَفَسَهَا المرتعش لتقول له:

- أتَرَى يا بني هذا الجمع من الغرباء والحزانى حاملي الأثقال كيف قطعوا المسافات تلو المسافات ليريحوا أبدانهم وأرواحهم مما علق بها عند قبر الشيخ الصالح؟ فكيف بك وأنت وريث العهد؟ ارجع وكن فطنا فإن الفطنة تمنح النعمة وتحلَّى بالحكمة فإنها تمنح الخلاص، أما طريق الغادرين فيورث الشقاء ويجلب النقمة، وكيف ينهل البعيد من حكمة الحكيم وتجهلها أنت القريب؟

كان قول العجوز راهين قويا على نفس آبيثار لكن حب الدنيا كان في نفسه أقوى فكان عازما حاسما في رده :

- لقد قررت يا أماه أن أحمل الحكمة من فيافي الصحراء إلى الأمم وإن كنت راعيا عهد أبي فيجب علي أن أبلغ رسالته لمن لم تصل إليهم، فأقسم الخير بيني وبينكم، أنا هناك وأنتم هنا.

فصلت راهين في الأمر وأمرت الجميع أن يلزم الصمت وأن يُخلّوا بين آبيثار وبين ما يريد، فقد كانت أعلمَ به من نفسه وأدركت يقينا أنه قطع أمرا لن يرده عنه أحد.

قبل حلول الفجر كان آبيثار قد فرغ من اقتسام ما ترك أبيه من مال ومتاع مع أخيه آرميا، فكانت له نصف قطعان الماشية وألف قطعة ذهبية،

وفرسه التي يرتحل عليها وبعض العبيد والجواري الذين يقومون بخدمته ورعاية ماشيته.

كان لـ آبيثار زوجتين هما عادينا وأديفا رزق من عادينا بثلاثة ذكور على خمس بنات، بينما كانت أديفا عقيما، ولم تنجب له. لم تكن زوجتيه راضيتين عمّا قرره، فأقسمتا عليه أن يرجع عن رأيه، وأن يبقى بأرض نازر مخافة أن تحل بهم نقمة الرب جميعا، كانتا تجادلانه وتذكرانه بالعهد الذي قطعه لأبيه الصالح قبل موته، لكن دون جدوى، فـآبيثار كان مُصِرًّا على رأيه قاطعا في قراره، ولم تجدا أمام ذلك بُدًّا من التوسل إليه أن يتركهما مع أمه راهين في أرض نازر ترعيان الأولاد وتحفظان والدته العجوز وتقومان على خدمتها، ويذهب هو إلى حيث يشاء، فلن يعجز أن يجد امرأة أصغر سنا وأكثر جمالا ليتزوجها وتقوم بواجبه. لم يمانع آبيثار في ذلك وترك لهما ما يكفي لعيشهما وعيش أولاده وأوصى بهم أخوه آرميا، أن يرعاهم ويحفظه فيهم كما يحفظ عهد أبيهما.

أكمل آبيثار جهازه من الماء والزاد ووضع عليه لباسه الصوفي، وتذكر قلادة كان قد ورثها عن أبيه نازر مصنوعة من الياقوت الأحمر ومنقوش عليها أسمه، لم يكن يهتم قبل الآن بحملها، لكنه تذكرها اليوم وهرع إلى صندوق قديم كان يحفظها فيه، فأخرجها ولبسها ثم أكمل لباسه وانتكب جرابه وتأبطا سيفه، فعبور الصحراء ليس بالأمر السهل، لكن كل ذلك يهون من أجل الالتحاق بـسدوم.

ساق آبيثار قطيعه وأخذ بلجام فرسه ومضى قاصدا غور الأردن، كان يعلم يقينا أنه يخرج من عهد الشيخ الصالح نازر وكلما ابتعد عن أرضه كان يحس بروحه تنخلع منه، فيشد بقوة على قلادته تحت سترته، كأنه يلوذ بها من الآلام التي تمزق صدره، لم يكن يدرك أن روحا أخرى كانت تسكنه، وتصل بينه وبين أمه وأخيه وباقي أهله، كان في رحيله عنهم انخلاعها عن جسده وكان خروجه مؤلما كغرغرة الموت، عرف حينها أن نكثه لعهد أبيه أشد إيلاما ووقعا على نفسه مما كان يتصوّر، لقد بات الآن موقنا تمام اليقين أنه يقدم على أمر جلل ربما لم يحسب له العواقب جيدا، لكن وقت النكوص أو التردد قد فات، ولم يعد ممكنا أن يتراجع. فكّر في أنه باستطاعته التخفيف من آلامه هذه إذا ما استطاع أن يحفظ نهج أبيه ويرفع سيرته في مدينة سدوم الغارقة في المادية والشهوانية وملذات الحياة وترفها، فينقل إلى أهلها ما تعلمه من حكمة الشيخ الصالح وإرث الأنبياء ويوصل رسالة الله إليهم، وبذلك سيكون قد أفلح في حفظ العهد وتحقيق رغبته بالحياة بعيدا عن قساوة الصحراء.

لم يكف آبيثار عن الحديث إلى نفسه طوال رحلته، يحاول أن يتخلص من تأنيب الضمير أو حتى يخفف منه، وكان يقول أن الربّ يدعونا، وحين يدعونا يعطينا القوّة لنمشي معه في طول الأرض، نعم هو الرب الذي دعاني وأخرجني إلى قومي مثلما أخرج أبي من قومه لكي يحصل على بركة الرب، والبركة تحتاج الى الطاعة، والطاعة تقتضي الكثير من الصبر، أقنع نفسه

بأن الرب هو الذي تحدث الى قلبه وأمره بالخروج فهذه مشيئته و هذه إرادته. هكذا صدق نفسه وأوهمها بأنه يسير في طريق الصلاح يروم الخير له ولقومه.

توقف برهة يتأمل الطريق البعيد المترامي أمامه في الصحراء، واستدار خلفه ليرى طول المسافة التي قطعها حتى الآن، كانت أشعة الشمس الحارقة تلفح وجهه، أخذ نفسا عميقا وقرر أن يأخذ قسطا من الراحة حتى تزول الشمس ويكمل مشواره.

هوت شمس الأصيل إلى مغربها، استجمع آبيثار قوته وواصل مسيرته، وكان يلتقي من حين لآخر برهط من الناس يقطعون الصحراء مثله، كان بعضهم يسألونه عن أرض نازر إن كان مرّ بها وكم بقي عليها، وكانوا يستفسرونه عن أحوالها وعن بركة شيخها الصالح وكراماته وحكمته، كان ذلك الأمر يثير اعتزازه واستغرابه معا، فكيف استطاع صيت أبيه أن يخترق الصحراء ويصل إلى كل الأمم والأمصار وهو لم يبرح مكانه قط؟ ترى من نقل أخباره؟ وكيف استطاعت حكمته أن تعبر الآفاق وتصل سيرته لكل هؤلاء؟

مرّ قرابة أسبوع من السفر وحدث ما لم يكن يتوقعه، فقد هاجم العطش ماشيته ونفذ زاد حواصلها من الماء، لم يعرف ماذا يفعل ولا كيف يتصرف خصوصا وأنه ابتعد بمسيرة يومين عن آخر بئر كانت في طريقه، وتيقن أن ماشيته ستهلك عن آخرها لا محالة إذا لم يرد نبع الماء التالي في أقرب وقت،

لذلك هَمَّ بأن يواصل المسير ليلا حتى يختصر الوقت، ربما تكون هذه أولى علامات نقمة الرب عليه بسبب خروجه، اضطربت نفسه وهز الخوف كيانه وأخذ يصلي لله مستحضرا سيرة النبي الصالح "أخنوخ بن يارد" :

- "رحمتك بي يا رب يا صاحب السلطان في الأرض كما في السماء، سأكون مثل ذلك الصالح الذي اقترب من الرب وسار معه في سِكَّته، رغم كل ما كان يحيط به في العالم من الشر، سأكون مثل عبدك الذي أخذته إليك يا الله، والذي شق طريقه المقدسة معك بين أكوام الشر ، كذلك سأسير أنا وأعبر طريقي إليك ، وستكون مسيرتي إليك لا نجس فيها ولا إثم، ومن سلك طريقا مع الله فإنه لا يضِل أبدا، آمين". لقد نفق نصف قطيعه، واضطر لذبح ما هزل من أغنامه ليأكل منها هو وخدمه وترك ما لم يقدر عليه لعابري الصحراء عسى أن ينتفع بها أحدهم ويستعمل جلودها أو تقتات الوحوش على ما بقي من لحومها.

بدأ آبيثار يشعر بالتعب الشديد وقد أرهقه طول الطريق، لكن سرعان ما استرجع نشاطه وشحذ عزيمته بعد أن اخبره بعض الركبان المسافرين أنه لم يعد يفصله عن مملكة سدوم سوى بضعة أميال قليلة، مسيرة يوم أو أقل، وما عليه سوى بمزيد من الصبر والعزيمة فهو الآن على مشارف تحقيق حلمه بالعودة لأرض أسلافه.

الفصل الثاني: عسل سدوم المسموم

كانت ممالك غور الأردن الخمسة سدوم وعمورة و"أدومة" وصبوئيموصوغر ، تعرف حضارة وعمرانا ورفاهية لا تضاهيها في ذلك أي بلاد أخرى، ففيها البيوت المترفة المريحة والأبراج العالية، وكان أهلها يجيدون فنون الصناعة والعمارة والتجارة والكتابة وبناء المعابد، ورصف الطرق، وكانت بساتينها ورياضها خضراء كجِنان غنَّاء فوق الأرض وذلك لما حباها الرب عن غيرها بمنابع المياه المتدفقة، والتربة الخصبة التي كانت تجود عليهم بكل النِّعم صنوفا وألوانا، فكان جل أهلها أغنياء ميسورين ومترفين. ورغم ذلك فإنهم لم يقابلوا النعمة بالشكر، ولم يحفظوا رسالة نبيهم "نوح" الذي حذّرهم من غضب الرب إن هم جحدوا صنائعه فيهم وحادوا عن طريق الإيمان، فعاثوا في الأرض فسادا وملأوها فحشا، وفتحوا المواخير، والحانات ونشروا الزنى والفجور، حتى أصبحت الرذيلة، أعلى شأنا عندهم من الفضيلة، و صار أكثرهم فسقا وفجورا هو أرفعهم مكانة وأكثرهم جاها. استمرأت نفوسهم النجاسة وكل من تطهر منهم وآثر الصلاح فكانوا ينفونه من الأرض أو يقتلوه، حتى زاغ كل من في تلك المدن من أقصاها إلى أقصاها، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونساؤهم، كلّهم زَاغُوا وفسدوا وأضلتهم أهواؤهم وأطاعوا أنفسهم المستسلمة لشهواتها.

شارفت مسيرة آبيثار على نهايتها بعد عناء طويل وتعب ومشقة، وها هي ذي أبراج سدوم العالية تلوح له في الأفق، الآن سيبدأ حياة جديدة، سيتخلص من جفوة البرية وينعم بحياة المدنية، وهاهو أخيرا يقف على البوابة الكبيرة، ألقى نظرة فاحصة على سور المدينة المرتفع، وجدارها السميك الممتنع، التقط نفسا عميقا ليشم ريحها، ثم دخلها وهو يخال نفسه فاتحا عظيما بعدما علم من رحلته أن الناس يحجون إلى أرض نازر ويقطعون من أجلها فيافي الصحراء طلبا لحكمة أبيه فكيف بهم إذا عرفوا أنه وارث الحكمة وأنه أتى بها إليهم ليرشدهم ويكون دليلهم للخير والصلاح.

لم يكن يعلم أن كل من كان يقصد أرض نازر من أهل تلك المدن، لم يكن إلاّ هاربا وملاحقا، أو طريدا، فهو بالقطع لم يدرك بعد أن الصلاح في قانون سدوم هو تهمة تقود للقتل أو النفي، وأن ممالك الوادي كلّها قد حادت عن نهج الله وطريق الهداية، واتخذت دينا آخر غير دين التوحيد، وأن شعوبها انحدرت إلى قعر الرذيلة وتوغل أهلها في الفسق والفجور أيَّما توغل. لقد غيروا دينهم وأشركوا بربهم الواحد وعبدوا إلها أسطوريا اسمه بعل واتخذوا له معابد وهياكل على غير سنن انبيائهم، وأقاموا على تلك المعابد والهياكل كاهنات فاسقات ماجنات يمارسن البغاء "المقدس"، ويشجعن على الزنا، فقد كان أهل سدوم و عمورة يؤمنون بأن ممارسة الجنس بأشكاله والسكر ولعب القمار والمبارزة هي من أعظم طقوس

العبادة، بل ذهبوا أبعد من ذلك بكثير ووضعوا منهاجا عقائديا، شاذا ومنحرفا يقوم على تقديم القرابين التي لا تقتصر فقط على الأنعام والأموال وإنما تعدّوها إلى تقديم الذبائح البشرية، إذ كان بعض الآباء يطرحون أولادهم بأنفسهم في النار المسعَّرة، لتأكلهم معتقدين أن الإله بعل يحب النار وأن كل شيء تأكله النار فهو يصل إليه ويحبه وهو ما أضفى لديهم طابعا من الألوهية عليها، فكانوا يضحون بمواليدهم الذكور ويقدمونهم لألسنة اللهب تشوي أجسادهم، ليشتركوا في شيء من الألوهية مع الرب، معتقدين أنهم بذلك يكرمون الإله بأَنفَسِ وأغلى ما يملكون.

كان آبيثار لا يزال يقف عند البوابة، فكّر أن يستريح من عناء الطريق فأمر بعض خدمه أن يقوموا من الآن على ما بقي من ماشيته خارج أسوار المدينة، بينما اختار هو أن يبحث عن خان ليرتاح فيه.

دخل آبيثار المدينة وسار بين أسوار سدوم منبهرا ببناياتها الشاهقة وزخارفها التي أبدعتها يد أمهر الصناع، أعجبته طرقها المرصوفة وأحياؤها البهيجة والتي لا تخلو من مظاهر الترف الباذخ البادية بجلاء للعيان.

كان الناس من أهل المدينة مختلفين في كل شيء عن أهل الصحراء، متميزين في لباسهم وزينتهم ونعومتهم ورقة طباعهم، فالرجال يلبسون أثواب حريرية تكشف سيقانهم وصدورهم المزينة برسومات ووشوم على شكل حيَّات وثعابين وثيران مجنحة، بينما تحرص نساؤهم على أن يلبسن ما يكشف أجسادهن البضة أكثر مما يسترن، أغلب فساتينهن مفتوحة من

كل الجهات تُبرز مفاتنهن، ويحرصن على زينتهن وتبرجهن فيُخَضِّبن وجوههن وشفاههن بالحمرة وينتفن حواجبهن ويكحلن عيونهن، ويضعن قلائد وعقود على نحورهن لتتدلى على صدورهن وتنسدل بين فتحة أثدائهن، وكن يتنافسن في إطالة شعورهن وإسبالها حتى تلامس أردافهن.

وبينما هو سائر في طريقه، وقعت عيناه على امرأة حسناء كانت تقوم على خدمة زوار حانوتها تسقيهم شراب ورد وخمرا ونبيذا في تغنُّج ودلال، وأخريات جالسات يقارعن كؤوس الخمر المترعة، ويطلقن ضحكات صاخبة ماجنة، وما كاد يقترب من الحانة حتى لمحته الخادمة من خلف الستار فارتمت عليه، وعانقته، أخذته تحت إبطها كطفل صغير ضاحكة من شكله، مستبشرة وهي تقول بغنج: "أهلا بالبدوي الزائر، أتاجر أنت أم عابر؟ وقبل أن يجيبها أو حتى ينبس ببنت شفة، تأبطت ذراعه وقالت له : " على كل حال لا تقلق فأنت ضيفي الآن تعال أنا سأهتم بك"، ثم ساقته إلى طاولة وأجلسته ودعت إليه بالشراب، كان مشدوها منبهرا، لا يقوى على النطق ينظر إلى كل ما حوله باستغراب وذهول، أخذ كوب الشراب من يدها لكن اضطرابه وتوتره جعله يُفلِت الكأس من يده ويهرق الشراب على الأرض حتى لفت إليه أنظار كل من في الحانة، نظر إليه الجميع باستغراب أثار ذلك هلعه، فقام من فوره وأخرج من جرابه قطعة فضية دفعها للنادلة وخرج مسرعا، وهو ينظر خلفه ويمسح عرقه المتصبب على جبينه بتلابيب وشاحه الصوفي الذي كان يعتمره على رأسه. اتكأ لبُرهة إلى حائط قريب

محاولا التقاط أنفاسه، والتخلّص من توتره ثم واصل مسيره بين دروب وأزقة المدينة، كانت رائحة الياسمين الممزوجة بأريج زهر الليمون تعطر الأرجاء ما ساعده على تهدئة روعه وانفراج أساريره، وبينما هو كذلك حتى سمع أصواتا وضوضاء وجلبة، كانت تلك أصوات حناجر التجار والباعة الذين يصدحون منادين على بضائعهم، قبل أن يجد نفسه وسط أكبر أسواق المدينة، فالمعروف أن سدوم باعتبارها أهم مدن عصرها كانت عبارة عن سوق كبير وملتقى قوافل التجارة في الشرق القديم كله، وكان التجار يقطعون الصحاري ويعبرون إليها البحار ليأتوها بأجود السلع النادرة والثمينة من الحلي والأحجار الكريمة والعاج وجلود النمور، إضافة لأفخر الأثواب وأدوات الزينة، فضلا عن أطيب العطور والبخور والطيب والدهن والتمور والتوابل وأنواع الزيوت وغيرها من البضائع والسلع.

طابت نفس آبيثار بما شهده حتى الآن من حضارة سدوم وعظمتها وجمالية أزقتها وكبر بيوتها وطرقها المرصوفة والممهدة بعناية، وبأسواقها وحدائقها ورياضها الغناء وبساتينها المخضرة اليانعة وبأزهارها التي تملأ الدنيا عبيرا، وكانت تعابير وجهه توحي بالرهبة والانبهار الممزوج بالدهشة، تذكر حاجته لمكان للإقامة ولو بشكل مؤقت، فعمد إلى أحد التجار وسأله عن مكان تواجد مستراح أو خان يقيم فيه لبضعة أيام فدّله على "خان شيت" الذي يتوسط المدينة كان شيت رجلا عبرانيا،أعدّ بيتا كبيرا من أجل استقبال التجار الغرباء ليبيتوا فيه، وكان يحرص على أن يقدم لهم كل ما يحتاجونه من

طعام وشراب وما تشتهيه أنفسهم من مجون وعربدة أيضا، فقد جهّز قاعة بوسط الخان لتكون ناديا يرتاده زبناء الرّاح واللذة والطرب على السواء، يقيم فيه حفلات الغناء والرقص وسوقا للرقيق الأبيض تباع فيه الأجساد وتمارس فيه الدعارة، وقد خصص شيت لهذا الغرض فريقا كبيرا من المومسات وزاد عليهم حتى الغلمان الصغار فهي سلعة رائجة جدا ومطلوبة للغاية .

هكذا كانت سدوم ومثلها كل مدن جنوب الوادي، وهكذا كانت أيامها لعب ولهو واحتفال ولياليها طرب وعربدة وسكر ومجون.

قضى آبيثار ليلته الأولى والثانية وتوالت الأيام والليالي وبدأت الوحشة والرهبة تزولان من قلبه، استأنس أكثر فأكثر بالمكان، أَلِف الناس وألفوه، وبدأت طبائعهم تترسخ في نفسه وتحل محل طبائعه، إذ سرعان ما غيّر من لباسه وارتدى ثوبا حريريا زاهي الألوان مثل لباسهم ونزع عنه لباس الصحراء الخشن.

أصبح آبيثار كثير التردد على أماكن اللهو يقضي نهاره في التسلية ولعب النرد ومناقرة الحمام، أو متسكعا بين الدكاكين والحانات، فقد أغوته بخمرها ونبيذها، التي دخلت جوفه لأوّل مرة فاستطعم مذاقها وأعجبه مدامها وخالط ندماءها حتى اختلطت أنفاسه برائحتها. أَلِف جو الإنحلال وحياة اللهو والفوضى، وزاغت نفسه ووقع فريسة سهلة في حبائل الشّيطان، وتبين له أخيرا زيف ادعائه بحمل رسالة التوحيد إلى أهل المدن،

ونسي العهود والوعود والمواثيق، بل أمعن في الجحود والخروج عن طريق الصلاح، وأعجبته الخطيئة وسلبته الغواية تقواه وصلاحه.

كانت ليالي آبيثار مثل نهاره، كلها عبث وفوضى وفسق وفجور فكان زبونا دائما ومقيما في نادي شيت يستمع لصخب الموسيقى وأغاني القيان ويرتمي في أحضان المومسات، كانت بدويته وطباعه الصحراوية وغلظته تثير نساء سدوم، فكن يتسابقن فيما بينهن لإغوائه، يرتمين في أحضانه، يُداعبنه ويغرينه ليعبث معهن، كُنَّ يتعمدن إيقاد لهيب شهوانيته المكبوتة، ليطفئ نار شهوتهن المتّقدة والتي زادتها فحولته وغلظته هيجانا.

في الوقت الذي كانت فيه ممالك غور الأردن الخمس سدوم وعمورة وأدومة وصبوئيم وصوغر ترفل في نعيمها وتعيش ترفها الذي مزجته بفحشها وفسقها، كان على الجانب الشرقي منها وتحديدا في أرض بابل القديمة، أربع ممالك متناحرة متقاتلة فيما بينها، وهي مملكة عيلام (أرض فارس) وكان يحكمها ملك شديد غليظ يدعى كدر لعومر، ومملكة شنعار وهي أرض ما بين النهرين دجلة والفرات وقد مَلَكَ أمرها حاكم اسمه سوموباليت وقد جمع القوة والدهاء ثم مملكة الاسار وهي أرض عمون (وسط الأردن) وكان عليها ملك اسمه أريوك ثم مملكة جوبيم وهي أرض تقع جنوب الأردن وكان عليها ملك يقال له تدعال، وقد عُرف عن هؤلاء الملوك جميعهم حبّهم للسيطرة والتملّك و سعي كل واحد منهم لتوسيع حدود مملكته على حساب الآخر، فكان بأسهم بينهم شديد، ورأيهم متصلب عنيد، وعزيمتهم

للحرب والقتال لا تنفل ولا تفتر، فلا يخرجون من حرب إلاّ ليدخلوا أخرى، لا تصمد لهم هدنة ولا يدوم لهم سِلم. فلماّ كانت هذه حالهم لم تعرف مدنهم استقرارا أبدا، ولم ينهضوا بأمر شعوبهم بعدما عمَت بصيرتهم وخاب رأيهم، وأغرتهم القوة ببعضهم البعض وأعجبتهم بسطة أجسامهم فانصرفوا لأمور الحرب والوقيعة وتدبير المكيدة وبناء الخطط، وتركوا بناء الإنسان وإشباع العقول والبطون وتنمية الأبدان والبلدان. أضاعوا سنوات طويلة في المعارك الضارية، لا يتحالفون مع بعضهم إلاّ للإغارة على بعضهم، ولا يكاد يستتب الأمر لأحدهم حتى يظهر استبداده وجبروته فينقلب عليه من حالفه بالأمس ليصبح عدوَّه اليوم، حتى باتوا لا يأمنون شرّهم بينهم لا يستقيم لهم حكم، ولا يثبت لهم سلطان، وكانت حروبهم شعواء لا تبقي ولا تذر ولا تترك كبيرا ولا صغيرا إلاّ وضرسته، فكان قتلاهم بالآلاف، وترمّلت جلُّ نساءهم وتيتّم أطفالهم. ورغم خصوبة أرضهم ووفرة مياههم إلاّ أن انشغالهم بالحرب حال دون عملهم في الأرض، فلا هم حرثوا حقلا ولا بذروا زرعا، ولا تركوا شجرا أو نخلا قائما على حاله، ويبست مراعيهم وجفت آبارهم فجاع أهل البلاد، وتفشّت فيهم الأوبئة والأمراض وأنهكتهم المحن والآفات.

ظل كذلك حال ممالك بابل إلى أن توفي سوموباليت ملك شنعار وآل الأمر لابنه أمرافل. كان شابا يافعا لم يتجاوز الثمانية عشر عاما من عمره، لكنّه بالرغم من حداثة سنّه وقلّة تجربته، إلاّ أنه عُرف بالحكمة والتبصُّر،

واشتهر بالرّزانة وحسن التدبير وقوة العزيمة وغزارة العلم. فكان أوَّل ما قام به من أمور الحكم، هو سحب قواته من كل الأحلاف والمعارك، وإرجاع عسكره لحدود مملكته، وقام ببناء سور سميك العرض شديد الارتفاع حول مدينته ليأمن غارات جيرانه، ثم صرف وقته وجهد رجاله للبناء والتشييد، فأقام الجسور وشق الطرق ومدّ قنوات الري، وبنى المعابد واهتم بالزراعة والرعي وحفر الآبار، فرعى أرضه حتى وَفَرَ زرعه وكبرت غلاله ونمت ثرواته، فشبع شعبه وأمن هو على نفسه وسلطانه.

آمن أمرافل أن المكتسبات التي حققها لمملكته ولشعبه لن تبقى محفوظة ومنيعة أمام ضعف النفوس ومرض القلوب إلاّ إذا تحصَّنت بما يصون الحقوق ويحفظ الحُرمات ويحمي الأفراد والممتلكات، فرأى أنه لا بُدَّ له من سَنِّ قوانين تُنظِّم العلاقات بين الأفراد وتحمي معاملاتهم، وتُبيّن الواجبات قبل الحقوق، تردع الظالم وتضرب على يديه، وتنصف المظلوم وتنتصر له، فأَعمَل فِكره وكرّس جهده وعلمه لكتابة أولى الشرائع البشرية على الأرض، هدفه من ذلك إقامة العدل ونشر المساواة وكان أوَّل ما كتبه في اللوح السامي أن "القاتل يقتل وأن العين بالعين والأنف بالأنف والسن بالسن والكسر بالكسر" ولم يكن يفرق في القصاص بين قوي ولا ضعيف ولا بين غني أو فقير، وقام بتعيين جهاز للسَّهر على تطبيق تلك القوانين، فأنشأ الشرطة وأقام المحاكم وعيَّن القضاة للنظر في شكاوى الناس، حتى عمّ

النظام في كل جانب وساد العدل واطمأن الناس وأمنوا على أنفسهم وممتلكاتهم واستتبَّ نظامهم.

كان أمرافل رجل سياسة ودهاء، ورأى أنه ليس من الحكمة أن يقطع حبل الود مع جيرانه من ملوك المدن المتناحرة، وأن الرأي الصواب يقتضي أن يتألَّف قلوبهم حتى يأمن خطرهم ويتقي شرّهم، فكان على رأس كل عام يرسل لهم السفراء محملين بالمِنَح والهدايا ويُجزِل لهم العطاء، ولم يقتصر جوده وكرمه على الملوك والأشراف بل تعداه إلى الطبقات الفقيرة من أهل تلك المدن فكان يوزع عليهم ما يفيض عن خزائنه من القمح والحِنطة ويرسلها إليهم مجانا دون مقابل، فزادت شعبيته و محبته في قلوب البابليين جميعهم دون استثناء، وتسامع الناس بعدله وحكمته والخير الذي أصبح يرفل فيه شعبه، فأصبحوا يلتجئون إليه، ويطلبون نصحه ويعرضون عليه ما أشكل عليهم من أمورهم، وكانوا يحكّموه في نزاعاتهم ويرضون حكمه، وأما ملوك بابل فقد بادلوه المودة بالمودة وقابلوا إحسانه بالإحسان، وغَدَت مكانته عندهم كبيرة وأصبح مهيب الجانب مطاع الرأي ومسموع الصوت.

كان هذا الاحسان المتبادل والمودة بينه وبينهم كفيلا بأن يجعل أمرافل يفكر مَلِيًّا في الحالة المزرية التي بات عليها أهل بابل، واقتنع أنه لا يكفي أن يطور مملكته ويحكم إغلاقها على نفسه وشعبه لينعم بالأمان، فطموحه كان كبيرا في إعادة أمجاد بابل وتوحيدها، وإخراج أهلها من بؤسهم، لكنه أدرك أن تحقيق ذلك ليس بالأمر الهيِّن، خصوصا في ظل الإنقسام والفرقة

وكل تلك الفتن والصراعات التي كان البابليون يتخبطون فيها وتلك الحرب الضارية المستعرة فيما بينهم منذ أكثر من أربعين سنة، حتى أهلكت حرثهم وأفنت نسلهم، وأذهبت خيرهم.

الفصل الثالث : أمرافل يضمد جراح بابل

بعد تفكير وتدبّر مليِّيْن،اهتدى أمرافل أخيرا إلى رأي بشأن حال ملوك بابل القديمة وعزم على السعي إلى عقد صلح بينهم لينهي حربهم ويصِل قطيعتهم ويلحم فرقتهم ويوحد صفوفهم، وفي نفس الآن يحفظ لأولئك الملوك ملكهم ويثبت سلطانهم ويبقيهم على عروشهم، فما كان منه إلاّ أن طلب منهم أن ينسوا ما بينهم من الخلاف لليلة واحدة فقط ويلبوا دعوته لوليمة كبيرة سيقيمها على شرفهم، وحدَّد لهم موعدا يجتمعون فيه عنده.

حرص أمرافل أن يكون الاستقبال حاشدا، وأن تكون الوليمة باذخة وأن يكون الحفل بهيجا، وهيَّأَ لذلك مكانا في أكبر ساحات مدينته، وعندما جاء موعد اللقاء، فرش لهم سبيلا من الرمل الأبيض النقي يبتدئ عند البوابة العظيمة، مشوا فيه بِخَيْلِهِم حتى وصلوا إلى الطريق المرصوفة في أطراف المدينة حيث وجدوا عَرَبَةً مَلَكِيَّة فاخرة تنتظرهم. كانت العربة كبيرة وواسعة، مكشوفة السقف، مصنوعة من خشب الأرز والسنديان ومقاعدها محشوة بالصوف المنعم ومكسوة بجلد النمور، تقودها أربع خيول قوية وأصيلة، ركبوها وسارت بهم تخترق الأحياء والأزقة، وكان أمرافل قد أمر بتزيين الطريق المؤدية إلى الساحة الكبرى وإعادة طلاء الأسوار المحيطة بها وتثبيت المشاعل الضخمة في جوانبها، وأمر كتيبة من بعض جنوده من

ذوي البنية القوية والقامة الطويلة بالانتظام في صف واحد على طول الطريق، بأزيائهم الموحدة وأسلحتهم على مناكبهم، مهمتهم أن يؤدوا التحية اللائقة بالملوك، كما أمر بوضع عدد من النساء والفتيات على الشرفات والأسطح وطلب منهن أن يقمن بنثر قطوف الورد المرشوش بعصارة الزهر على موكب الضيوف، فيما كانت حناجر القيان تصدح بالأهازيج ترحيبا بمقدمهم، فإذا وصلوا إلى الساحة الكبيرة، كان هو في انتظارهم. ولقيهم في أبهى حلّته وتبادل معهم التحية وطلب منهم الجلوس كلٌّ في المكان المُعدِّ له سلفا، إذ جهّز لكل ملك منهم متكئا من القطن الوثير والملحّف بالحرير الناعم المجلوب من أقصى إمبراطورية الشرق، فيما جلس هو على عرش عظيم هيّأه له أمهر الصناع في مملكته وزيَّنوه له بنقوش وبعض أحجار الياقوت والزمرد، وكتب عليه اسمه، وكان قد أقام على ناصية الساحة تمثالا كبيرا له من البازلت تحته لوح من المرمر النقي نَقَش عليه شريعته.

كانت مملكة أمرافل قد شهدت نهضة تنموية واقتصادية كبيرة، انعكست بجلاء على عمرانها، فرصفت طرقها، وخصبت مراعيها وعلَت أسوارها، وتزينت معابدها بما يليق بالإله "شمش" الذي كان يعبده سائر البابليون.

كانت مظاهر القوة والتقدم والازدهار والمدنية التي حرص أمرافل أن يظهرها لضيوفه من ملوك بابل، كفيلة بأن تبعث في نفوسهم رهبة كبيرة، لم تزدهم سوى انبهارا وإعجابا به وبمنجزاته لدرجة أنه جعل كل ملك من

أولئك الملوك الأربعة يمني التَّفس بأن يكون له ملكا مثل ملك أمرافل، لمَ لا وهو أصغرهم سنًّا وأقلُّهم تجربة ولم يمضِ على حكمه سوى خمس سنوات ولكنه حقَّق فيها ما لم يحققوه هم طيلة أربعين سنة.

أخذ الضيوف مكانهم على المنصة وسط الميدان الكبير، وأخذوا يجيلون النظر فيما حولهم من البنايات الشاهقة والتماثيل المنحوتة بإتقان، والزينة المعلّقة بعناية والمشاعل المبثوثة في كل ركن، وكان على الجانب المقابل لهم تمثال الملك أمرافل وتحته "لوح الشريعة"، بينما جلس هو يراقبهم ويرى أثر الحيرة عليهم، وقد ركزّ اهتمامه على الملك كدر لعومر صاحب عيلام فهو أقواهم وأكثرهم شراسة وتعطشا للسلطة والجاه.

كان هناك إلى جانب ملوك بابل القديمة عدد كبير من المدعوين إلى الحفل من كبراء وأشراف شنعار وجيرانها، حضروا إلى الحفل يستمتعون بعزف الفرقة الموسيقية التي أدت لهم أجمل الأهازيج وصدحت حناجر قيانها بأجمل الأغاني، وما هي إلا لحظات حتى دخل الخدم ووضعوا أمام ضيوف الملك مائدة عظيمة ثم أتوا بصينية ضخمة مصنوعة من الفضة الخالصة، يحملها عشرة من العبيد الشِّداد وعليها عجل سمين تم ذبحه وطهيه خصيصا لهم وكان العجل مُسَجّى فوق أكوام من الخضر اليانعة المطهية بالدهن، والأعشاب المنسَّمة وعلى جنبات الطاولة كانت عشرات من الصحون والأطباق الفضية تحوي من أشكال وأصناف الطعام ما تشتهي الأنفس من لحوم الطير واللبن المطبوخ والأرز وأقداح السمن والعسل

ومراجل النبيذ وأباريق الشاي وعصارة الفواكه.كانت الوليمة دسمة والمأدبة أكبر مما صورته لهم مخيلتهم، وأجواء الفرحة والسرور بادية على محياهم، وطبعا كانت تقاسيم الدهشة والإنبهار ملازمة لهم طيلة الوقت، وما إن انتهوا من وليمتهم حتى هرع الخدم مجددا وفي لمح البصر فاخلوا المكان من المائدة الضخمة وما عليها ثم وضعوا مكانها مبخرة ضخمة من الفضة الخالصة تتصاعد منها أزكى روائح العود المحترق.

وبينما استأنفت الفرقة الموسيقية وصلتها الغنائية طلب الملك أمرافل من ضيوفه أن يرافقوه ليزوروا المعبد الأعظم للإله "شمش" إلٰه الشمس الذي يعبده كل البابليون كي تنالهم بركته ويدركهم مجده، فلم يترددوا في تلبية دعوته، وساروا معه على السجاد الأحمر المبسوط من المنصة وحتى باب المعبد، فلما ولجوه هَالَتهم عظمة المكان وضخامة البناء، وكثرة التماثيل وجمالية الأروقة المزينة بالرسومات البديعة والنقوش، وماهي إلاّ بضع خطوات حتى وصلوا إلى القاعة الرئيسية المعَدَّة للصلاة، كانت تتوسطها مائدة مستديرة مُعدَّة مسبقا لاجتماعهم، طلب منهم أمرافل الجلوس، ففعلوا، والانبهار لا يفارق تقاسيمهم، كانت الإضاءة قوية بفضل ضخامة المشاعل المثبتة على الجدران، وصدى الصوت يتردد من المحاريب المزينة بالنقوش والمرصعة بالأحجار الكريمة، فيما كانت أعمدة دخان الأبخرة تتصاعد من كل جانب وهدوء تام يخيم على المكان ما أضفى على اجتماعهم هيبة كبيرة.

أخذ الملك أمرافل الكلمة وجدد الترحيب بضيوفه معبِّرا عن سعادته لكون أرض شنعار هي المكان الذي استطاع أن يجمع كل ملوك بابل على أرضية السلم والسلام والتآخي ومشاركة الطعام بعد أربعين سنة من الحرب والاقتتال، كما قال لهم أن كونه أصغرهم سنا لا يعني أبدا أن ينكر فضل باقي الملوك الذين سبقوه، وأن تجربتهم وحنكتهم ستكون لها الكلمة العليا في تحديد مستقبل بابل التي يرغب الجميع بأن تأخذ المكانة اللاّئقة بها بين الأمم. كان هذا الاستهلال في حديث الملك أمرافل مقدمة للأمر العظيم الذي يريدهم أن يُقدِموا عليه من أجل توحيد البابليين، فأطرق قليلا ثم قال: "لا معنى لأن ننعت أرض بابل بالعظيمة، وأن نمجد الإله "شمش" صاحب الرزق والقوة، وشعوبنا تعاني الفقر والجوع والحاجة حتى بات أطفالها ونساؤها لا يجدون ما يسد رمقهم ويُشبِع جوعهم ولا فائدة أن يكون ابن بابل قائدا عظيما وفارسا مغوارا ومقاتلا لا يشق له غبار إذا وجّه سيفه لصدر أخيه، وترك الأعداء من حوله يغنمون خيرات الأرض والسماء. إنَّ التاريخ سيذكرنا بسوء وستلعننا الأجيال اللاّحقة لأننا انصرفنا عن مهمتنا الحقيقية وهي بناء مجد بابل وتنمية الإنسان وسيادة الأمم من حولنا وعكفنا على قتال بعضنا، نسفك دمائنا بأيدينا ونقوم مقام أعدائنا بعمل الشر في أنفسنا وأهلنا، وغيرنا أولى بقتالنا". كان الجميع ينصتون إلى أمرافل باهتمام بالغ وانتباه، بينما كانت نظراته تتفحص وجوههم لترى وقع كلماته عليهم، والتأثر باديا على محياهم بوضوح. ثم استرسل قائلا: "إن

أربعين سنة ضاعت من عمر أبناء بابل في حرب خاسرة لا غالب فيها حتى تفانوا، حرب لم نجن منها سوى آلاف القتلى والنساء الأرامل والأطفال اليتامى والعجائز المعطوبين، بينما ينشغل أعداؤنا بتكديس الأموال ومراكمة الثروات، كيف لا وقد سيطروا على طرق القوافل وحولوا مدنهم وأسواقهم إلى مراكز تجارية مهمة؟ ألم يكن أولى بنا أن نصرف قوتنا وجهدنا لقتال أعدائنا؟ إن سدوم وعمورة وسائر ممالك وادي عمون باتت نقطة الضوء في أرض الشرق كله، وبات كل ملوك الأرض المجاورة لنا وشعوبها أيضا يدينون بالولاء لهم، فأصبحنا نقطة في بحر من الأعداء. ولا لوم على أحد غيرنا فقد كفيناهم سطوتنا بخلافنا وقتالنا بعضنا البعض طيلة أربعين سنة، لهذا كله جمعتكم اليوم لأسألكم "ألم يحن الوقت لتتوقف هذه الحرب الخاسرة والطاحنة؟ ألم يحن الوقت أن نتعلم من أعدائنا رصَّ الصف وتوحيد الجهد في البناء والعمران وتنمية الإنسان؟" بلى، فقد آن الأوان يا أصحاب المعالي لنكون بابليين حقيقيين كما يجب ونستحق شرف انتمائنا، هذه كلمتي إليكم يا سادة بابل فانظروا رأيكم".

كان لخطاب أمرافل الوقع الكبير في نفوس ضيوفه، وكانت ملامح التأثر بكل ما شاهدوه وسمعوه بادية بجلاء على وجوههم، وبينما هم كذلك، عمَّ القاعة سكون وهدوء شديد لم يقطعه سوى صوت الملك كدر لعومر قائلا:

- فليسمح لي جناب أمرافل العظيم بالكلام فلدي ما أقوله.

أومأ إليه أمرافل برأسه موافقا، فاستطرد كدر لعومر قائلا:

"اشكرك أيها الملك على حفاوة الاستقبال وعلى كرم الضيافة وهذا الأمر ليس بالغريب ولا الجديد على جنابكم وإني وشعب عيلام نقدر تعاونكم ودعمكم لنا طيلة أربع سنوات فقد كنتم نعم الجار الذي يكرم جاره بما عنده من خير في وقت الشدة وكنتم تصلوننا كما ينبغي للأخ أن يصل أخاه. أمَّا بخصوص ما قلتم عن فرقة البابليين وتشتُّتِهم وتأخرُّهم عن ركب الأمم القوية في الأرض بسبب انشغالهم بقتال بعضهم، فإنني لا أستطيع أن أنكر كلامكم ولا أن أفنّد روايتكم فلسان الحال يغني عن كل مقال، وإني والحال هكذا أقطع لكم عهدا هنا في هذا المكان المقدس وأعرف ان كل العيلاميين سيكونون معي، ألاّ نرد يدا امتدت لنا بالسلام خصوصا بعدما شاهدته من أمر مملكتكم وكيف أنكم جعلتم أرض شنعار مضرب مثل كل البابليين في رغد العيش والازدهار والأمن، فأشيروا علينا برأيكم يا جناب الملك فإني لا محالة معكم أرى ما ترون".

أحس أمرافل أن خطته تسير على أحسن ما يرام وبأسرع مما تصور، فهو لم يكن يخشى أحدا من ملوك بابل بقدر خشيته من كدر لعومر لما عرف عنه من عناد وتصلّب، لكن يبدو أن ما شهده هذا الأخير منذ قدومه لأرض شنعار من قوة ونظام وتطور وازدهار قد جعل غروره ينكسر وجبروته يضمحِل، فابتهجت أسارير أمرافل ونظر إلى بقية الملوك قائلا:

- "يهمني أن يُدلي كل ضيوفي الكرام بما لديهم حتى أعرف رأيهم".

لم ينتظر كثيرا حتى قام الملك أريوك سيد الاسار متحدثا:

"بعد إذنكم عالي المقام أمرافل العظيم ليس لي ما أضيفه على ما تفضلتم به ولا يتعارض اثنان في الرأي بشأن أرض بابل وكونها لا تستحق الحالة المزرية التي باتت عليها، وشعبها العظيم بالتأكيد يستحق أن يعيش حياة كريمة رغدة ومستقرة، لكن كيف السبيل إلى ذلك ونحن لا نأمن بعضنا؟ فقواتنا مستنفرة طيلة الوقت، كيف يمكن أن نبني مدننا ونرفع شأن بابل بين الأمم وسيوفنا مسلطة على رقاب بعضنا البعض؟..." ثم نظر إلى كدر لعومر موجها له الكلام: "بالمناسبة هل يستطيع جناب الملك العظيم كدر لعومر أن يعطينا تفسيرا، لماذا قواته الآن وحتى هذه الساعة لا تزال مرابطة حول أرضنا؟ فهي منذ سنتين تحاصر مداخل مملكتي ولولا تدخل جناب أمرافل العظيم لما استطعت أنا ولا جناب تدعال ملك جوبيم أن نكون هنا".... قاطعه الملك تدعال منتفضا وثائرا بدوره في وجه كدر لعومر :" صدق الملك أريوك وهو محق فيما يقوله تماما، فهل تنكر أنك أنت سبب كل الحروب والمآسي التي شهدتها بابل طيلة أربعة عقود من الزمن؟ أتنكر أنك حاولت مرارا اغتيالي بعدما ملأت قصري بجواسيسك؟"

همّ كدر لعومر بالرد على الملكين أريوك وتدعال فحال دونه الملك أمرافل الذي تدخل محاولا تهدئة جميع الأطراف قائلا:

- اعذروني يا أصحاب المعالي لكن لسنا هنا الآن لإلقاء اللوم على أحد أو تبادل الاتهامات، ولا أحد منا مؤهل لمحاكمة الآخر، فمن يريد بناء المستقبل عليه ألاّ ينظر إلى الماضي إلاّ لأخذ العبرة، وعلينا أن نتطلع دوما

إلى الأمام، وأظن أننَّا هنا في هذا المكان المقدَّس قادرين على أن نصنع السلام تماما مثلما كنا قادرين طيلة أربعين سنة أن نصنع الحرب، لذلك فأنا أعتمد على رجاحة عقولكم وبعد نظركم، في أن نتجاوز عن أخطاء الماضي وأطلب منكم أن تسمعوا مني وتقبلوا ما سأعرضه عليكم".

سكت الجميع، وبدى عليهم الارتياب والارتباك وسرعان ما قرأ الملك أمرافل ما دار بخلدهم، فأردف قائلا:

- لا أريدكم أن تتخلوا على عروشكم، ولا أن تتنازلوا لأحد عن ملككم، فليس عدلا أن نقدم تنازلات مؤلمة كهذه مقابل العيش بسلام، لكن أقترح عليكم أن نتفق أوَّلا على إيقاف رحى هذه الحرب المستعرة وأن يسحب كل واحد منكم قواته إلى داخل مملكته، وأن نتعاهد هنا أمام الإله "شمش" ألاَّ يُغِير أحدنا على الآخر وألاّ نتحالف ضد بعضنا البعض، وأن نصرف الجهد والوقت للبناء والتشييد وإعادة أمجاد بابل... ثم التفت إلى الملك كدر لعومر كأنما يوجه إليه الكلام وهو يقول: "ولا أعتقد أن العظيم كدر لعومر له أي اعتراض على اقتراحي هذا، فحضرته كان له السبق في اقتراح وضع الحرب وبناء السلم، وهذا يحسب له وأنا واثق أنه كان صادقا في حديثه وأنه منزّه عن الحنث بيمينه، لذلك أدعوكم الآن جميعا أن تمدوا له أيديكم بالصفح والعفو، فقد أقسم قبل قليل ألاّ يرد يدا ممتدة بالسلم أبدا وإلاّ ما رأي جناب كدر لعومر العظيم؟

- كدر لعومر: تماما أيها الملك، فأنا لا أحنث بقسمي ولا أنقض عهدي، وأنا عند وعدي لكم. وسأعطي أوامري من هنا وأنا على أرضكم المباركة وفي معبد الإله "شمش" لقائد قواتي أن يفك الحصار على مملكة ألاسار ومملكة جوبيم والعودة بالجيش كله إلى عيلام، لكن أريد من الملكين أريوك وتدعال عهدا قاطعا بألاّ يتحالفا ضدي ثانية وإلاّ.... أمرافل مقاطعا كدر لعومر : "أشكرك جناب الملك على مبادرتك العظيمة هذه فالملوك العظام لا تكون عطاياهم إلاّ عظيمة، وأنا ضمين بالملكين أريوك وتدعال أن يعاهدا جنابكم على الوفاء وعدم الغدر بكم، وأظنهما لا يمانعان بالقسم على ذلك؟

الملك أريوك: أقسم لكم جناب أمرافل العظيم أنني من جهتي لن أعود للغارة والحرب على أيّ مملكة من ممالك بابل وأقطع لكم عهدا ألاّ أدخل في حلف ضد أي منهم ولن أبيِّت لأحدهم سوءً، وأعاهد الإله "شمش" على ذلك.

- وأنتم جناب تدعال العظيم ما قولكم (أمرافل متسائلا)؟

الملك تدعال: أعاهدكم جناب الملك وأعاهد العظيم كدر لعومر على السلم والأمان والصلح، وأقسم على ذلك أمام الإله "شمش".

استبشر الملك أمرافل بنجاحه أخيرا في عقد الصلح بين ملوك بابل القديمة وطلب منهم أن يتصافحوا وأن يعلنوا نهاية الحرب فيما بينهم، وطلب أن

يكتبوا كتابا بذلك ويمهرونه بأختامهم وأن يعلقوه في محراب الهيكل الكبير ليشهده الإله "شمش" وكذلك كان.

كلّف كبراء بابل كبير الكهنة في المعبد بصياغة كتاب أسموه "وثيقة العهد" وضَمَّنوها تعاهدهم بوضع الحرب وسحب كل ملك منهم لقواته إلى حدود مملكته وعدم تشكيل أو الدخول في أحلاف ضد بعضهم البعض وتجريم كل فعل من شأنه أن يقوض السلام أو يخرق هذا الاتفاق، وقبل أن ينتهي الكاهن من تحرير الوثيقة، وعرضها للتوقيع رأى الملك أمرافل أن يضيف بعض البنود التي تظل بنظره مهمة جدا بل لا تقل أهمية عن البنود المتعلقة بوضع الحرب، فذلك في نظره ليس كافيا وليس هو الغاية بحد ذاتها، إذ لا بد أن يتَّحِدوا فيما بينهم لإعادة بناء ما دمّرته سواعدهم وإصلاح ما خرَّبوه.

أقنعهم أنه ليس بمقدورهم مواجهة ممالك غور الأردن الغنية والقوية وعلى رأسها سدوم وعمورة أو تحقيق حلمهم وبعث أمجاد بابل القديمة ما داموا على فرقتهم تلك، وتشتّت أمرهم، فاقترح عليهم أن يوحدّوا صفوفهم وينسقوا فيما بينهم، وأن يقتسموا السلط ويوزعوا الأدوار ويتولى كل واحد منهم القيام بالمهام التي يحسنها، وتحديد ذلك لم يكن بالأمر الصعب، فسرعان ما اتفقوا أن يتولى أمرافل مسائل السياسة والعلاقات مع الأمم، وأن يقوم أيضا بشؤون القضاء والعدل وإقامة القوانين وتنظيم حياة الأفراد وعمل الشرطة وإنشاء الدواوين، فهو أقدرهم على ذلك بفضل حنكته وعلمه الغزير واطلاعه على حضارات الأمم الأخرى، فيما عهدوا للملك

تدعال بالسهر على أمور التجارة وتنظيم سير القوافل وتأمين طرقها وإقامة الأسواق وجلب السلع إليها وتصدير ما ينتجونه باعتباره أكثرهم دراية بأمور التجارة وأساليبها ومعرفة بمراكزها وعلاقاته الجيدة بأغلب التجار ومسيري القوافل الذين يقطعون الطريق المحاذي لمملكته التي تتوسط ممالك الشرق القديم حيث توجد سدوم وعمورة وأرض كنعان في الغرب ومصر وسيناء جنوبا وآرام دمشق شمالا. أما مسائل الحرب وشؤون العسكر فلم يكن ليتولاها أحد غير كدر لعومر فهو أشرسهم في القتال وأكثرهم فَتْكًا بأعدائه وقدرته على البطش لا حدود لها، كما أنه يحسن رسم الخطة وتدبير المكيدة، فضلا عن كونه مقاتلا صلدا، شديد المراس ولا أحد ينكر أنه يعد بحق فارسا مغوارا ومحاربا لا يشق له غبار، أمّا الملك أريوك فقد عهدوا له بتدبير أمور الزراعة والري وتنمية المحاصيل وتطوير المراعي و قطعان الماشية، لضمان غذاءهم.

كان اتفاقهم هذا منصفا لهم ومريحا لنفوسهم، فقد جمع شملهم وأنهى حربهم وحافظ لكل ملك منهم على هيبته وسلطانه، فكتبوا ذلك في "وثيقة العهد" وأشهدوا عليها جمعهم وباركها كهنتهم. وأذاعوا الخبر في كل أرض بابل فابتهجت شعوبهم وعمَّت الفرحة كل أركان ممالكهم وخرج سكان المدن مهلِّلين ومستبشرين بالسّلم الذي غاب عنهم لعقود، آملين في عيش رغيد ومستقبل واعد.

الفصل الرابع: على طريق الغواية والهداية

باتت مدن غور الاردن، سدوم وعمورة وصبوئيم وأدومة وصوغر، غارقة في ترفها وملذاتها وممعنة في فحشها وفجورها، بمقابل ذلك، كانت أرض نازر بقلب الصحراء تُشِعُّ نورا وصلاحا وكانت بركة الرب تغشاها والرحمة والسكينة تسكن قلوب أهلها، فصارت ملجأً للفارين بدينهم من كل مكان، ومأمنًا للخائفين وملاذ الجوعى والمحرومين، وكان يحج إليها كل طالب علم وحكمة وبركة ليشهدوا وصايا الرجل الصالح الذي ورث حكمة الأنبياء، هكذا أصبحت أرض نازر وهكذا أصبح معها آرميا سيدا للحكمة بعد خروج أخيه، فتقلَّد الأمانة التي حمَّله إياها والده ورعاها كما يجب، وظلَّ وفيا لعهده، يكرم الضيف ويؤَمن الخائف، ويؤوي الغريب، يحنو على الصغير ويرحم الكبير، يرعى أهله ويقري ضيوفه، ويقيم الصلوات حمدا وشكرا لله الواحد على نعمائه حتى أصبح نور العلي يغشاه وينبعث من جبينه لا يخفى على كل من يراه.

أصبحت قوافل الفارين بدينهم من أرض سدوم وسائر ممالك الشرق تحج قاصدة أرض نازر المباركة يطلبون النجاة وينشدون الفلاح حتى تستريح نفوسهم المتعبة وتطمئن قلوبهم الثكلى، وما فتئ آرميا يزداد ورعا وحرصا على حفظ عهده وخدمة ضيوفه، حتى بات كل من يَفِد عليه لا

يرحل عنه، فكان الوافدون يقيمون خيامهم غير بعيد عنه بمحاذاة سفح الجبل، ويُؤثرون البقاء ورأى أنه أصبح لزاما عليه أن يدبر عيشهم، ويوفر لهم ما يكفيهم من قوتهم وحاجيات يومهم، فحفر الآبار ومدّ السواقي ليشرب منها الناس وبنى طاحونة للقمح والحنطة، وزاد من المساحة المزروعة، وكان الرب يُغدق عليه وعلى أهله من الخير والبركة فكبرت جنته واتسعت رقعتها، وأينعت كروم الزيتون والتين والعنب وأثمر النخل، وتضاعفت قطعان الماشية، وزاد حليبها وسمنها وزُبدها. ومثلما حرص "آرميا" على إشباع بطون الجياع من أهله وضيوفه، فإنه لم يكن لينسى إشباع أرواحهم وتغذيتها وتهذيب نفوسهم فبنى هيكلا، لإقامة الصلوات وتمجيد الرب الواحد وإعلاء دين التوحيد، وتلقين الوصايا وإسداء النصح لكل الحيارى والحزانى والمتعبين الذين قصدوه ينشدون بركات الرب ومجد الإله الواحد، حتى أصبحت أرض نازر جنة وسط الصحراء وأصبح أهلها أمة بعد قِلّة، وبات آرميا هو سيد هذه الأمة وناصحها والأمين عليها.

أما على الجانب الآخر فيما وراء الصحراء والنهر، فقد كان أهل سدوم وعمورة وباقي مدن جنوب الوادي سائرين على سيرتهم بل وزادوا في انحلالهم وفساد أخلاقهم حتى أنهم كانوا يُخرجون من مدينتهم كل من عفَّت نفسه عن الرذيلة بعد أن يصادروا أمواله ويسلبوه ممتلكاته، فالفساد والزنى والفحش أصبحت في عرفهم دينا وعقيدة، وكانوا يؤمنون أن الإله بعل يرضى عنهم كلّما أغرقوا في فُحشهم وأمعنوا في رذيلتهم فبات خيرهم هو من

يبتدع من المنكر صنوفا وتلاوينا، وأكثرهم إتيانا للفواحش علنا وعلى رؤوس الأشهاد.

وسار معهم آبيثار في طريق الغواية وانغمس في ملذاته وشهواته ونسي ما تربى عليه وما زرعه الرجل الصالح نازر فيه من خوف الرب وقيم الصلاح وعفة النفس واجتناب الفواحش وتعظيم المحارم، وأصبح شغله الشاغل أن يسهر ليله في الحانات يقارع الخمر ويرقص على أنغام القيان، فيما يقضي نهاره بين حلبات ألعاب الميسر والرهان. وقد عُرِف عن أهل سدوم وعمورة أنهم كانوا يقيمون في أسواقهم وميادينهم حلبات للقمار وسباق الخيل واللعب بالحمام ومناقرة الديوك، وكان يتحلق حولها الكثير من الناس للمراهنة والمقامرة، فينفقون في سبيل ذلك المال الوفير، حتى أصبحت تلك العادة الفاسدة تجارة رائجة ومربحة تدر على أصحابها أموالا طائلة ويقتضي عنها الملوك جبايات ومكوس. ولم يكن آبيثار الرجل الغريب القادم من الصحراء ليجد ضالته من كل تلك الشهوات والمتع المحرمة دون مساعدة شيت صاحب الخان، فقد استطاع هذا الرجل العبراني أن يهوي بـآبيثار إلى الدرك الأسفل من مستنقع الرذيلة بسهولة، يعد له السهرات الماجنة ويقتني له أنواع الخمر والنبيذ المعتق ويجلب له ما تشتهي نفسه من النساء، ويدلّه على أماكن اللهو والعبث. لم يعد آبيثار يلقي بالاً لمكارم الأخلاق التي تربَّى عليها ولا ينصت لصوت الحق في ضميره ولا يراعي حرمات الرب فيما تقترفه جوارحه حتى تجاوز في جنوحه كل الحدود، استهان بالذنوب

واستباح الأعراض، واقترف الزنى مع كل النساء اللواتي أعجبنه وأثرن شهوانيته حتى المحصنات منهن كان لا يُفلتهن فيغري أزواجهن ومحارمهن بماله الوفير الذي جلبه من أرض نازر المباركة وينفق عليهن بسخاء، بل وزاد في فحشه على رذيلتي الخمر والزنا ما أصبح يواظب عليه من ألعاب الميسر والرهان، التي ذهبت بماله حتى لم بعد يجد ما ينفقه على ملذّاته، بعدما بات على حافة الإفلاس.

اضطر آبيثار أمام وضعه المالي المتعسر وإعراض الناس عنه للبحث عن مخرج من مأزقه فخرج إلى مراعي الماشية والإبل خارج أسوار المدينة وعرض ما تبقى لديه من قطعان الإبل والماشية للبيع بما فيها فرسه التي يرتحل عليها، كما ساق عبيده الذين كان يقومون عليه ويسهرون على خدمته إلى سوق النخاسة وباعهم فلم يعد له ما يملكه ولم يعد في حاجة إليهم، فتحصل من ذلك البيع على مبالغ مجزيةٍ من المال، لكنه هذه المرة فكّر في أن يغير من طريقة إنفاقه وقرر أن يُقلّل من إسرافه وبذخه حتى لا يجد نفسه مضطرا إلى العمل بعدما كان سيدا والناس يقومون على خدمته. اقتنى مسكنا خاصا به في المدينة وترك خان شيت، وأصبح يفكر في الزواج وبدأ بالبحث عن صبية شابة ذات حسن وقوام لعلها تغنيه عن الارتماء في أحضان البغايا والمومسات، وتكفيه عمَّن سواها من النساء .

ذات صباح بينما كان آبيثار جالسا كعادته بأحد مستراحات المدينة على مشارف السوق، وقعت عيناه على فتاة شابة وجميلة، رشيقة القد

والقوام جميلة الوجه كحيلة العينين، شفتاها كحبات كرَز، وعنقها كبرج يخترق السماء في خيلاء. كانت تزين صدرها العاري بقلادة تعكس لمعان الشمس وهي مرتخية بين خط نهديها المكتنزين، وتنسدل خصلات شعرها الطويل المتموجة والمربوطة إلى نطاق خصرها في أعلى مؤخرتها البارزة للعيان. ورغم أنها كانت تلبس ثوباً طويلاً من خصرها إلى أخمص قدميها إلاّ أن صدرها تماما مثل ظهرها كانا متحرران وشبه عاريان، وكان ثوبها يشف عما تحته من فخذين ممتلئين وسيقان.كان آبيثار يحملق في الفتاة كأنه لم يرى امرأة من قبل، فاغرٌ فاه وعيناه تكادان تقفزان من محجريهما، وكانت الفتاة تنتقل بين دكاكين الباعة والتجار، ويرافقها رجل يبدو عليه سمات الصرامة والثراء.

لمح أحد رواد المستراح آبيثار وهو يحملق في الفتاة الحسناء يكاد ينقض عليها، فوكزه بعصاه على كتفه قائلا:

- ما بك أيها البدوي تنظر للفتاة هكذا؟ هل حرّكت شهواتك؟

نظر آبيثار إلى مخاطبه قائلا :

- ترى من تكون هذه المُهرة الناعمة؟

- أجابه الرجل : إنها حورانة بنت الكاهنة العظيمة أديرا

- آبيثار : هل لها زوج؟

الرجل: ليس بعد لكن ثمنها باهظ يا جلف الصحراء، فهي بنت الكاهنة العظيمة ووالدها هو الملك بارع ملك سدوم.

آبيثار : ومن يكون ذلك الرجل الذي يرافقها؟

الرجل: إنه رابيم زوج الكاهنة العظيمة أديرا وقائد الجيش

آبيثار: أليست الكاهنة العظيمة زوجة الملك بارع حاكم سدوم؟

الرجل: من قال هذا يا جلف الصحراء؟ الملك بارع متزوج من أخت ملك عمورة وتدعى إيرام والكاهنة العظيمة متزوجة من القائد رابيم قائد جند سدوم وصاحب لوائها، لكن الملك والكاهنة لهما الحق في الاستمتاع ببعضهما متى أرادا ذلك ويكون اجتماعهما مباركا وهذه الفتاة الحسناء حورانة هي ثمرة أحد اجتماعاتهما.

فهم آبيثار أخيرا أن الفتاة الحسناء التي سلبت لُبَّه هي ابنة غير شرعية للملك بارع حاكم سدوم من الكاهنة أديرا، فالزنى والفحش كان في عرف السدوميين عبادة وترف حتى سقطوا في اختلاط الأنساب وانتهاك الأعراض ووصلت بهم الرذيلة إلى حد سفاح القربى وانتهاك المحارم فأصبح الرجل يزني بابنته أو أخته أو حليلة ابنه وأصبح الأخ يدخل على أخته، فصارت أنسابهم فاسدة ودماؤهم ملوثة. لكن آبيثار لم يعد يأبه لكل ذلك فقد اعتاد أن يقضي وطره ويُشبع نزواته وغرائزه كائن في ذلك ما هو كائن بعدما هان الدين في عينيه وخرج الإيمان من قلبه وأمن انتقام الرب.

عقد آبيثار العزم على الزواج من تلك الفتاة الحسناء البهية الوجه، الناعمة الملمس فقد اشتهتها نفسه وحرّكت غرائزه، ورأى فيها المرأة التي تكبح جماح شهوته المتقدة للنساء وقرر أن يسعى لنيلها مهما كلّفه ذلك من ثمن

ولم يجد أمامه من يعينه على ما يريد سوى وسيطه القديم شيت صاحب الخان فقد كان معتادا أن يقدم له مثل هذه الخدمات وأكثر، وسبق وأن عرض عليه زوجته مقابل المال، فلن يمانع أبدا في إقناع الكاهنة العظيمة أديرا بتزويجه من ابنتها حورانة مقابل مبلغ من المال.

توجه آبيثار مسرعا نحو خان شيت وبمجرد ما رآه هذا الأخير حتى انفرجت أساريره وبشّ وجهه، فقد علم أنه باع ماشيته وقطيع إبله وأصبح يمتلك مالا وفيرا، فرّحب به أشد ترحاب وقدم له كأسا من النبيذ، لم يتأخر آبيثار في الإفصاح عن سبب مجيئه، فعرض حاجته وأخبره أن مكافئته ستكون مجزية إن هو تمكَّن من إقناع الكاهنة العظيمة بأن تزوجه ابنتها.

تبسَّم شيت ولمعت عيناه وفكّر مليا في الأمر ثم طلب من آبيثار أن يعينه باقتناء كل ما تشتهيه أنفس الكاهنة العظيمة وابنتها من هدايا وعطايا من أثمن العطور وأجود أنواع الكحل ومواد الزينة وأثواب الحرير والحلي من الذهب والفضة، ويتوجها بها إلى المعبد الكبير، ولم ينسيا تقديم الذبائح والقرابين للإله بعل، ومن ثم يجلسا إلى الكاهنة الماجنة أديرا ويفاتحانها في أمر الزواج.

لم يتردد آبيثار في الاستجابة لكل ما طلبه شيت بل كان أكثر كرما وسخاءً في إنفاقه، وبالفعل فقد كانت تلك الهدايا والعطايا والقرابين التي ساقها كفيلة بأن تفتح لهما باب الكاهنة العظيمة على مصراعيه، فاستقبلتهما بحفاوة وترحاب كبيرين رغم أن نظراتها لآبيثار كانت تنم عن الاستصغار

والاحتقار، فملامح البداوة كانت لا تزال طاغية على طباعه حتى بعدما غيّر جلده وأصبح يحاكي السدوميين في لباسهم وزينتهم وأفعالهم.

لم يتكلم آبيثار في حضرة الكاهنة بأي كلمة بل أوكل هذه المهمة لوسيطه شيت المعروف بحسن منطقه وانتقاء كلماته وبراعته في إقناع محاوريه. استهل شيت حديثه مع الكاهنة بتقديم آبيثار باعتباره سيد قومه الذين يستوطنون الصحراء، وأسهب في تعداد ممتلكاته وجنانه وواحاته وماشيته التي تجعل منه رجل مال ويسر وكيف أنه يستطيع أن يجعل ابنة الكاهنة العظيمة حورانة تعيش في ترف ونعيم ورغد عميم، وأن لا أحد يقدر على إسعادها مثله لما حباه به الإله بعل من قوة في النفس وبسطة في الجسم والعقل وكيف أن قسوة الصحراء وجفوتها جعلتا منه فارسا لا يشق له غبار، فجمع الشرف والمال والقوة وهي الصفات التي يطلبها كل الناس.استطاع شيت بحديثه أن يستميل الكاهنة للموافقة مبدئيا على زواج آبيثار من ابنتها، فقد أظهرت هداياه الثمينة وقرابينه مدى غناه وترفه، فضلا عن قوته البدنية التي تجعله مهيب الجانب لكل من يراه، بالإضافة إلى هذا كله كان هناك أيضا صيته الذائع بين نساء سدوم إذ تناهت أخبار مجونه وقدراته الجسمانية الكبيرة إلى مسامع الكاهنة من نساء المدينة اللواتي عرفنه. وافقت الكاهنة العظيمة على طلب آبيثار الزواج من ابنتها حورانة بل واقنعت ابنتها باختيارها، بعدما قدم لها مهرا كبيرا من القطع الذهبية والمصوغات الثمينة من الذهب الخالص والفضة وتم إعلان الخبر للعامة

وإطلاق العنان للاحتفال ونصب الزينة وإيقاد المشاعل وضرب الدفوف وإقامة الأعراس ابتهاجا بهذا الزواج وتقاطرت الهدايا والعطايا على الكاهنة العظيمة والعروسين من كل حدب وصوب واستمرت الاحتفالات والمهرجانات لأزيد من أسبوعين كان آخرها ليلة مشهودة من ليال سدوم حضرها الملك بارع ودُّعي لها أكابر القوم ووجهاء سدوم وعمورة وأدومة وصبوئيم وصوغر حيث أقامت لهم الكاهنة وليمة ضخمة استمتعوا فيها بما لذ وطاب من شهي الطعام والطرب من حناجر القيان التي كانت تصدح بأعذب المعزوفات، وأجساد النساء شبه عرايا تتراقص وتتمايل لتثير غرائز الرجال تزاحمهم عليها أجساد الغلمان بعدما أضحى أهل سدوم يبتدعون من الرذيلة ما لم يسبقهم إليها أحد.

مر على زواج آبيثار قرابة العام عاش فيها سعادة غامرة وفرحة كبيرة مع عروسه الشابة الحسناء حورانة وزادت سعادتهما بخبر حملها، وهو الخبر الذي كان له وقع مغاير تماما على نفس آبيثار فرغم أنه سبق له وأن رزق ببنين وبنات من زوجته عادينا، إلاّ أن وليده المنتظر هذا احتل في قلبه مكانة خاصة حتى قبل أن يبصر النور، وذلك دون باقي أبنائه، ربما لأن آبيثار أصبح فعلا يحب حورانة ويهيم بها عشقا، فأصبح حبه لوليده المنتظر جزء لا يتجزأ من حبه لـحورانة.

الفصل الخامس: أسود بابل تكشر عن أنيابها

مر عام على صلح ملوك بابل، ووضعت حربهم أوزارها، فهدأت نفوسهم وضمدوا جراحهم وجمعوا كلمتهم، وانصرف كل ملك منهم لما تم تكليفه به من مهام ولما هو أهل له. ولما كانت ظروفهم متعسرة وخزائنهم فارغة فقد أشار عليهم كدر لعومر بأن يمدوه بما يكفي من الرجال والسلاح للغارة على الممالك المجاورة لـبابل من ناحية الغرب حتى يمكنهم من السيطرة على طرق سير القوافل والتحكم فيها ولم لا يقوم بتحويل مراكز التجارة من ممالك الوادي وغور الأردن إلى أرض بابل، فيعينهم بما يغنمه من الحرب من أموال ويجبي لهم الضرائب على قوافل التجار العابرة لتلك الأرض ويفرض الجزية على سكانها، فتمتلئ خزائنهم وتتقوى ممالكهم، ووافقه الرأي كل من أمرافل، ومعه أريوك وتدعال، ولم يتركهم كدر لعومر حتى عقدوا ألويتهم وعزموا أمرهم وجمعوا عدتهم وعديدهم، وأقرّوا خطته للغارة على ممالك وادي وغور الأردن كلّها بعدما أغراهم بذهبها وفضتها وأموالها.

كان معروفا أنه من استطاع أن يغلب على مدن وادي الأردن ويُخضعها لحكمه أنه سيناله منها الخير العميم والمال الوفير فضلا عن كونه سيضع يده على أكثر وأكبر المراكز التجارية أهمية وازدهارا في الشرق كله. فبات البابليون يتربصون بها ويتحينون الفرصة للانقضاض عليها حتى

يخضعونها لسلطانهم ويستحوذون على ثروات أهلها وممتلكاتهم وخزائن أموالهم. ولم يتأخر كدر لعومر المتعطش للقتال في الخروج لمهمته الجديدة، بعدما وضع لذلك خطة محكمة تقوم على البدء بالزحف على الشعوب والممالك الصغيرة المنتشرة على ضفاف الوادي والمتحالفة مع ممالك غور الأردن، مثل الرفائيين والعماليق والحوريين ثم اقتحام أرض الآموريين المتحصنين في قلاع ثامار وقد كانت هذه الشعوب جميعها تستوطن ضفة وادي الأردن من جهة الشرق وتشكل فيما بينها طريقا رئيسية للتجارة ومرور القوافل تربط بين آرام دمشق وأرض مصر.

كان تخطيط كدر لعومر على قدر كبير من الفطنة والدهاء حيث دبَّر لضرب عصفورين بحجر واحد، فمن جهة يأمن على ظهره من هذه الشعوب الصغيرة التي تدين بالولاء لملوك سدوم وعمورة ومن جهة أخرى يمنعهم من نصرتهم والقتال إلى جانبهم حتى يتسنى له الاستفراد بجيوش ممالك غور الأردن المنعزلين وراء عمق السديم[8] ويقضي عليهم تباعا، بعد أن يكون قد منع عنهم حلفائهم ويئسوا من نصرتهم.

كانت سدوم مستمرة في سيرتها وكان أهلها لا يتركون مناسبة خاصة أو عامة إلاّ وأقاموا لها الولائم الصاخبة والأفراح الماجنة، لم يكن أحد منهم يدُر بخلده أن دوام الحال من المحال وأن الأقدار الإلهية تتربص بهم وتكيد لهم جزاءً بما كسبت أيديهم، وما هي إلاّ أيام معدودة حتى بدأت حملة البابليين تؤتي أكلها، فكانت بحق حملة شرسة ضارية، وقد تمكّن كدر

لعومر في وقت وجيز من اكتساح أراضي غالبية الشعوب التي تستوطن الوادي من جهة الشمال والشرق بعدما عاث في أهلها قتلا وبطشا، لدرجة أن تعطشه للدماء والحرب جعله يرفض كل طلبات الهدنة والاستسلام التي كانت ترد عليه من خصومه، ولا يقبل بها وأعانه في ذلك خبرته وجاهزية جنوده وقتاليتهم العالية التي اكتسبوها في حروبهم الطويلة، ففتكوا بكل أعدائهم واحتلوا مدنهم وأخضعوها لسلطانهم بعد دحر جيوشهم وقتل قادتهم، والتنكيل بهم دون شفقة ولا رحمة.

باتت الأرض ممهدّة أمام كدر لعومر وجيشه للمضي نحو الممالك الغنية التي لم يعد يفصلهم عنها سوى الآموريين هؤلاء الذين رفضوا أن يخرجوا للقتال وتحصنوا في قلاعهم بأرض ثامار، ما اضطر كدر لعومر لحصارهم وضرب الطوق حولهم من كل جانب، فقطع عنهم المدد ولم يجدوا أمامهم بدّا من استصراخ حلفائهم من ملوك مدن غور الأردن، ليهبوا إلى نجدتهم وفكّ الحصار عنهم قبل أن يهلكوا جوعا، أو يساقوا عبيدا تحت السيوف.

أرسل الملك بارخ قائد الآموريين خطابا إلى ملك سدوم بواسطة الحمام الزاجل يحذره فيه من جيوش بابل، ويطلب منه النجدة ويستحثه من أجل إمداده بما يفك الحصار عنه وعن جنوده والتسريع بنصرته والوقوف معه في وجه كدر لعومر. ووصلت صرخة الآموريين مدوية إلى بارع ملك سدوم فعرف أن الخطر بات محدقا به وبالممالك من حوله كلّها وأدرك أن أياما قليلة فقط تفصل البابليين عن اقتحام حصون ثامار ودكها ومن ثم

فلن يوقفهم شيء عن القدوم إلى ممالك غور الأردن المترفة، وعندها لن توجد قوة تمنعهم وتحول دون سبي نسائهم وسلب ممتلكاتهم وجنانهم وأموالهم، وذلك أمر ليس ببعيد ما لم يتم التعجيل بنصرة الآموريين وإعانتهم على صدّ جيش بابل والحيلولة دون سقوط حصون ثامار مهما كلَّف الأمر من المال والرجال.

لم يتوانَ الملك بارع حاكم سدوم في دعوة كلٍّ من برشاع ملك عمورة، وشنآب ملك أدومة، وشمئيبر ملك صبوئيم ومدين ملك صوغر لاجتماع عاجل من أجل اطلاعهم على فحوى رسالة الملك بارخ وتحذيرهم من الخطر الذي بات يتهددهم جميعا بزوال ملكهم وضياع ثرواتهم.

لم يكن السدوميون ولا نظرائهم من بقية المدن أهل حرب وقتال فقد ألفوا حياة الترف والبذخ حتى رقّت طباعهم ولانت نفوسهم وتراخت عزائمهم، فلم يعودوا يقووا على الحرب وبأسها وما تفرضه عليهم من تداريب قاسية وامتناع عن اللهو والمتع، فضلا عن ضراوة القتال خصوصا إذا كان العدو شرسا ضاريا متعطشا للدماء والفتك مثل عدوهم الزاحف إليهم.

لم يتأخر ملوك غور الأردن في الاستجابة لنداء الملك بارع وسرعان ما هبّوا عن بكرة أبيهم واجتمعوا في معبد سدوم الأعظم وكان اجتماعهم ذلك من أجل رَصِّ الصُّفوف وجمع العدة والعتاد والجند وتجهيز الجيوش ولم ينسوا تقديم القرابين لإلههم المزعوم بعل عسى أن يعينهم في محنتهم هاته،

وعَهدوا بقيادة جيشهم للقائد رابيم زوج الكاهنة العظيمة أديرا وأجمعوا رأيهم على أن يخرج في فيلق كبير قوامه عشرة آلاف جندي من كل الممالك لنصرة الآموريين وفك الحصار عنهم وإمدادهم بالسلاح والمؤن، كي يستجمعوا بها قواهم وينهضوا جميعا على جيش كدر لعومر فيردونه عن حصون ثامار ويمنعونه من عبور عمق السديم والوصول إلى ممالكهم. وبينما يخرج القائد رابيم في فيلقه، تبقى جيوش المدن الاخرى تحرس الممالك الخمس، فتحصِّن قلاعها وترفع أسوارها تحسبا لأي طارئ.

لم يكد ينتهي الأسبوع حتى اكتملت عدة جيش سدوم وحلفائها وتراصت صفوفهم، كان بارع يعول كثيرا على قائده رابيم لشجاعته وبسالته وإقدامه المشهود له به، وهي الصفات التي مكّنته من تبوئ مكانته كقائد للجند والزواج من الكاهنة العظيمة أديرا، ففوض له وضع خطط القتال وتولية الأمراء على الجيش.

رأى رابيم قبل خروجه أن يقسم جيشه إلى ثلاث فرق ويضع على رأس كل فرقة قائدا يكون شديد المراس مشهود له بالضراوة والإقدام، وأمر باستدعاء آبيثار للخروج معه بعدما رأى أنه حان الوقت للاستفادة من غلظته وجفوته وبنيته الجسمانية العظيمة التي زادتها طبيعته الصحراوية شدة وصلابة، بل وأوكل إليه مهمة قيادة مقدمة الفيلق ليضمن ثبات الجند عند الصدمة الأولى.

لم يكن آبيثار يتوقع أبدا أن يتم استدعاؤه للخروج مع جيش سدوم باعتباره غريبا عن المدينة، بل وتوليته قيادة فرقة من أهم فرقها، ولم يستسغ أن يتم إجباره على الخروج فهو لا يطيق الابتعاد عن جوار ومؤانسة زوجته الحسناء حورانة التي باتت اليوم تنتظر مولودها، كما أنه لم يكن مقتنعا بفكرة القتال تحت راية ملك لا يشارك بنفسه في الحرب ولا بالاعتماد على بركة "إلٰه" لا يؤمن به. لكن آبيثار لم يكن يملك خيارا آخر وهو الذي صار اليوم من خاصة أهل سدوم وسادتها بعد زواجه من ابنة الكاهنة، وصار صهرا لقائد الجيش، كما أنه لم يكن ليغامر بضياع هيبته أمام زوجته وأصهاره وباقي أهل المملكة الذين طالما رأوا فيه مقاتلا صلدا وفارسا لا يشق له غبار، فقبل بالخروج وإن على مضض.

ودّع آبيثار زوجته على أمل لقائها ومولوده بعد عودته من الحملة، وخرج في جيش سدوم قاصدا قلاع ثامار، كان الجميع يردد أهازيج وترانيم تمجد الإله بعل وتُعلي شأنه، وكانت حناجر القيان تصدح بأناشيد النصر والفخر وتنشد الشعر لتستنهض همم الجند، الطبول تقرع من كل جانب وحوافر الخيل تثير نقع الأرض كعاصفة عاتية تلوح من بعيد. وسط كل ذلك وبمعزل عنه في نفس الآن كان آبيثار يسير شارد الذهن مهموما حزينا، فقد تراءت له صورة أمه راهين وكأنه يراها لأول مرة وهي تؤنبه بنظراتها الحادة المعاتبة، لم يعلم لماذا هاجمته ذكرياته بأرض نازر بعد كل هذا الوقت على خروجه، ولماذا الآن بالذات تستعرض أمامه صور أخيه آرميا وصور

زوجتيه وأبنائه وبناته، كان في غمرة شروده مدركا تمام الإدراك لخطورة ما يقدم عليه، وكيف أنه تم الزج به عنوة في رحى حرب مستعرة لا ناقة له فيها ولا جمل. تساءل مع نفسه: "ترى هل هذا عقاب الرب له على أفعاله المخزية؟ هل ستكون نهايته بطعنة سيف طائشة أو رمية نبل عشوائية؟" ثم مضى يُقرِّع نفسه، ربما لو اقتصر الأمر على نقض عهد الرجل الصالح نازر لهان الأمر لكنه لم يقف عند ذلك، فقد انغمست نفسه في الرذيلة حتى تلطخت روحه بآثام الخطيئة وتدنست أنفاسه وفسد دمه بعد كل ما اقترفه من زنى وفحش وهتك الأعراض وتعاطي المسكرات ولعب الميسر والقائمة تطول، تأفَّف من ذكرياته التي هجمت عليه فجأة وتذمر من حديث نفسه الثقيل وفجأة تذكر القلادة التي كان يضعها على صدره، أمسك بها وشد عليها بقوة، عساها تسكت خوفه وتوقف نبضه المتسارع، خطر له أيضا أن يردد بعض الصلوات والترانيم الدينية التي تمجد الرب الواحد وتطلب عونه ومجده علّها تُنجيه من الهلاك، لكن هيهات فذاكرته لم تعد تسعفه في تذكرها، كأن كل الصلوات والتسبيحات التي حفظها عن الرجل الصالح قد مسحت تماما من ذاكرته. أحس بضيق في صدره وتَطَيُّر فشدّ على سيفه، بعدما لم يعد له من ملجأ سواه وهو يقول لنفسه:

"حسنا سأقتُل كي لا أُقتَل وبعدها لكل حادث حديث" هكذا تحدث مع نفسه وعزم أمره حتى حين.

مرّ أكثر من أسبوع على خروج جيش رابيم، تجاوزوا خلالها عمق السديم وهو مكان تتواجد به المئات من حفر القطران والكبريت التي كانت تشكل حاجزا طبيعيا يفصل مدن جنوب الوادي عن شماله، ووصل ركبهم إلى مكان يقال له رملة النخيل حيث توجد على أطرافه حصون ثامار. وهي مكان ظليل وفير الماء والطرائد أيضا، قرر القائد رابيم حال وصوله أن يعسكر بجيشه في هذا المكان لمدة ثلاثة أيام ليستريح الجند والخيل من عناء الطريق الطويلة ومشقة السفر، وحتى يتمكن أيضا من التقاط الأنفاس والاستعداد الجيد لمواجهة جيش بابل.

كان كدر لعومر يتوقع قدوم السدوميين، بل وأمر جنده بإخلاء المكان حتى يُعسكر فيه جيشهم ولا يتقدمون أكثر لما وراء الحصون، وما هي إلاّ ساعات حتى حمل إليه رصَدَه خبر وصولهم.كان كدر لعومر داهية حرب يتقن وضع الخطط وكان شديد المكر، إذ وضع خطة تُمكّنه من أن يستدرج أعداءه ويتظاهر بالهزيمة أمامهم ثم ينسحب هاربا بقواته، حتى إذا اطمأن الآموريون لزوال خطره عليهم فتحوا أبواب قلاعهم المحصَّنة، فيقوم حينئذ بدس بعض رجاله ليتسللوا داخل الحصون ويفتحوا له الأبواب في الوقت المناسب للغارة، فيقضي عليهم جميعا وعن بكرة أبيهم ثم يتجه رأسا لمدن سدوم وعمورة وباقي ممالك جنوب الوادي، يسطو عليها ويستفرد بها الواحدة تلو الأخرى.

مرّت ثلاثة أيام على وصول جيش رابيم وإقامة معسكره، بينما شرع كدر لعومر في تنفيذ خطته دون أن يثير جلبة أو أن يلفت إليه الأنظار، فجعل ثلثا جيشه يتراجع لأبعد نقطة شرق الحصون حتى يغيب آخر جندي عن أنظار المراقبة بينما بقي هو يراوح مكانه في كتيبة من الثلث الباقي ينتظر غارة السدوميين. ومع انبلاج فجر اليوم الرابع تراصَّتِ الصفوف واحتشدت قوات الطرفين وما هي إلاّ أن هجمت قوات القائد رابيم يتقدمها آبيثار واصطدمت بقوات كدر لعومر فكان الاصطدام قويا وبدأت المعركة شديدة البأس حامية الوطيس، كان آبيثار هو البادئ بالهجوم وقد أبلى بلاءً بطوليا، وقتل عددا كبيرا من جنود العدو، بل ولشدة بأسه وضراوته في الحرب كان يقاتل لوحده أكثر من خمسة رجال في النزال الواحد ويصرعهم حتى بات جند العدو يتجنبون مبارزته الأمر الذي استنهض همة القائد رابيم ومعه بقية الجيش فباتوا يحاربون هم أيضا بضراوة، خصوصا وأن عدد قواتهم كانت بنفس عدد قوات جيش بابل فظنوا أنهم يغلبون عليهم بقوة عدتهم وكثرة خيلهم وحسن تجهيزهم، واستمر القتال سجالا حتى استمات السدوميون ومن معهم، وبدأوا يكسبون الأرض ويدفعون قوات بابل للتراجع ولما رأى الآموريون أن المعركة تميل لصالح حلفائهم، فتحوا البوابة الكبرى للحصن من أجل السماح للجرحى بالدخول وإسعافهم، وكذلك إدخال الإمدادات من الأقوات والطعام التي حملها إليهم جيش رابيم.

استمرت المعركة شرسة دامية بين كتيبة كدر لعومر وجيش سدوم الذي انضمت له قوات الآموريين ومع انتصاف النهار، كان الجيشان قد استطاعا أن ينالا من بعضهما البعض، وأدرك كدر لعومر أنه حان الوقت للانسحاب من المعركة وإيهام رابيم وجيشه ومعه الآموريون بأنه انهزم أمامهم وأنهم انتصروا، خصوصا وأنه نجح في انهاك قواتهم وقتل عدد كبير من فرسانهم واستنزاف جيشهم، بالمقابل كان بعض رجاله قد نجحوا في تنفيذ الجزء المهم من الخطة المتمثل في استدراج نفر من الجنود السدوميين وقتلهم وسلبهم لباسهم العسكري وألويتهم ودروعهم وسلاحهم، وقاموا بارتدائها والتنكر في هيئة جنود سدوميين، ثم اندسوا وسط جموع الجيش. ولمّا رأى كدر لعومر أن خطته تسير وفق ترتيبه الذي أراده وأنه بلغ مقصده من المعركة أمر جنده بالانسحاب والتراجع، موهما أعداءه فعلا أنهم انتصروا عليه وأرغموه على الفرار مدحورا .

هلّل الآموريون والسدوميون وباقي حلفائهم للنصر المزعوم وهم يرون جيش بابل ينسحب ويتقهقر للخلف، وانطلت عليهم الحيلة خصوصا وأنهم لم يفكروا في ملاحقة فلول الفارين لإبادتهم، وذلك لضعف نفوسهم وخوفهم من خسارة نصرهم الوهمي واستعجالهم انتهاء القتال. وما أن اختفى آخر جندي من قوات كدر لعومر عن الأنظار حتى أطلقوا العنان لأبواق النصر وهتافات الفرح وقرعوا الطبول، وتبادلوا التحايا وباركوا لقادتهم.

كان الجميع فرحا مزهوا بهذا الانتصار، وفتحت أبواب الحصون كلها لتدخل منها القوات المتحاربة دخول الأبطال الأشاوس وعلى رأسهم القائد رابيم الذي كان ممتطيا صهوة جواده ويسير مزهوا بخيلاء يتقدم جيشه ليلتقي الملك بارخ قائد الآموريين عند باب القصر الكبير، وطبعا دخلت القوات المتحالفة ودخل معهم أكثر من عشرين جنديا من جنود كدر لعومر مندسين ومتنكرين في هيئة مقاتلين سدوميين.

كان الناس يهللون ويهتفون باسم القائد رابيم وباسم جنود سدوم وعمورة وملوكهما، الجميع كان فرحا منتشيا بالنصر، وحده آبيثار كان واجما صامتا لم يفرح بهذا الانتصار ولم يحس بنشوته رغم عبارات الثناء والإطراء التي كانت تنهال عليه من قادة الجيش وفرسانه لِما أبداه من شجاعة وبسالة وإقدام. فهو لم يكن مرتاحا ولم يلق بالا لتلك الورود التي كانت تنثرها عليه وعلى زملائه أيادي الحسناوات الآموريات، فتلك الحرب على كل حال لم تكن حربه ولم يكن ليفرح بنصر جيش سدوم ولا ليحزن لهزيمة البابليين، ولولا أنه أجبر على الخروج لما خرج من الأساس ولا حمل سيفا في مواجهة عدو ليس بعدوه.

وصل رابيم ومعه آبيثار لباب القصر الكبير الذي يتوسط حصون ثامار وكان في استقبالهم الملك بارخ وزوجته وكبراء الكهنة والسادة وعلية القوم، كلهم كانوا يحتفون بـرابيم وجنوده ويمجدونهم ويثنون على بلاءهم العظيم

وبسالتهم التي استطاعت قهر أعظم جيوش الأرض. نزل رابيم من على صهوة جواده مترجلا نحو الملك بارخ وخاطبه قائلا :

-فليحيا جناب الملك بارخ العظيم ملك الآموريين، مبارك عليكم نعمة الإله بعل بهذا النصر العظيم سيدي.

- الملك بارخ :فليحيا القائد رابيم، مبارك أنت ومباركة خطواتك، كل الآموريين مدينون لكم أيها المبجّل، لولاكم لضاعت أرضنا ولكانت سُبِيت نساؤنا ولكنا جميعا في عداد القتلى أو الأسرى.

- القائد رابيم : ما كان ذلك ليحدث سيدي حتى يفنى آخر جنودي.

- الكاهن العظيم: مبارك أنت أيها القائد ومبارك هذا اليوم الذي حلّت فيه نعم الإله بعل علينا، ونصرنا على عدونا، أما الغزاة فلتحل عليهم اللعنة لتسحقهم وتأكلهم الأرض ويحرقهم سديمها .

- الملك بارخ: اعلم يا جناب القائد أنك وجنودك من الآن في ضيافتي، فأنا أدعوك لتريح عندنا أنت وجيشك حتى يذهب عنكم عناء الطريق ورهق المعركة، ونحتفل سويا ونطلق العنان للأفراح والسهرات احتفاء بكم وبنصركم.

- القائد رابيم: إنها دعوة كريمة منكم ولا يمكنني ردّها، سنمكث إذن بضعة أيام حتى يستريح الجند ونسعف الجرحى ثم نرجع إلى سدوم، لكن لا بد من أن نرسل خبرا إلى الملك بارع لنزف إليه البشرى ويطمئن أهل سدوم فهم يترقبون أخبارنا بكل تأكيد.

- الملك بارخ: لا عليك أيها القائد العظيم سنتدبر الأمر فيما بعد ونرسل إليهم بريدا بذلك.

كانت الهتافات والأهازيج تملأ المكان، والفرحة تعلو الوجوه، وحده آبيثار لم يكن يأبه لكل هذا الصخب من حوله، نفسه حزينة ولا يفكر سوى بزوجته ومولوده الذي قد يرى النور في أية لحظة، لم تَطِب نفسه بالبقاء والاحتفال مع القوم، فكّر للحظة ثم توجّه نحو القائد رابيم يطلب لقاءه.

– القائد رابيم: ما خطبك أيها المقاتل الصنديد مالي أراك متجهما وكأننا انهزمنا في المعركة ولم ننتصر؟ أهكذا يكون حال الغالب؟

–آبيثار: ليس هذا أيها القائد العظيم، لكن بالي مشغول على زوجتي كما تعلم قد يأتيها المخاض بين يوم وليلة وأرغب أن أكون بجوارها، لذلك أطلب أن تأذنوا لي بالعودة إلى سدوم حالا.

- القائد رابيم: كل هذا الشوق لـحورانة ؟ لماذا لا تنتظر حتى تستريح وتنال حظًّا من المتعة ونرجع سويا؟ هيا استمتع بوقتك، اشرب واحتفل واقتطف ما يحلولك من حِسان ثامار فهن باذخات الجمال وفاتنات.

- آبيثار: معذرة أيها القائد لكن لا حاجة لي بالراحة والاحتفال، فأنا فعلا منشغل جدا على حورانة وأرغب بشدة أن أحضر ولادة ابني، فاسمح لي بالخروج الآن، وسأحمل خبر النصر للملك بارع بنفسي، حتى يُحضِّر استقبالا يليق بمقامك.

– القائد رابيم: حسنا كما يحلو لك أيها الفارس العاشق، يمكنك الخروج واختر من الجند بعض الرجال ليخرجوا معك، فالطريق غير آمن ولا بد لك من الصحبة.

– آبيثار: أنا ممتن لك أيها القائد العظيم، أتمنى لكم مقاما طيبا أما أنا فسأتجهز لسفري بما يكفيني ورجالي من الزاد ثم أخرج مع الفجر.

– القائد رابيم: أتمنى لك رحلة خالية من المشاكل والصعاب بلّغ تحياتي وسلامي للكاهنة العظيمة أديرا والملك بارع.

– آبيثار: مؤكد أنَّني سأفعل سيدي، إلى اللقاء في سدوم.

انفرجت أخيرا أسارير آبيثار وخرج إلى رجاله الذين اختارهم لمرافقته، فأخبرهم بساعة خروجهم وطلب منهم أن يتجهزوا للعودة بما يلزم من القوت والماء.

الفصل السادس :ثامار وسدوم والنصر المزعوم

بدأ الآموريون احتفالاتهم بينما كان رجال كدر لعومر المندسين وسط الحشود يأخذون أماكنهم عند البوابات والمداخل، ويراقبون الوضع عن كثب، وانخرطت قوات الجيش بالخارج غير بعيد عن القلاع في تجهيز نفسها ورصّ صفوفها، وإصلاح ما تلف من العتاد والأسلحة، وتضميد جراح من أصيب من الجند. وكلف الملك كدر لعومر بعض عيونه بمراقبة الوضع عند البوابات وطلب منهم أن يلتقطوا الإشارة من رجاله الذين تسللوا إلى داخل الحصون، فقد اتفق معهم على إطلاق دخان كثيف مباشرة بعد غروب الشمس إيذانا منهم بأن توقيت الهجوم قد حان وأن البوابات ستفتح في تلك الليلة.

انشغل الآموريون بالتحضير للاحتفال بعدما فرغوا من حرق جثث القتلى وإسعاف الجرحى، فقاموا بإعداد الزينة، وإشعال المشاعل، وتحضير الساحات لحفلات الغناء والرقص، وانشغل معهم حلفاؤهم من سدوم وعمورة ، بالبحث عن المتعة بين أحضان النساء ودنان الخمر، بعدما آمنوا بانتصارهم وتخلوا عن استنفارهم.

خرج آبيثار ورجاله قاصدين أرض سدوم وحاملين معهم البشرى لملكها بارع وحلفاءه بانتصارهم الوهمي واندحار عدوهم، ولشدة شوقه لزوجته،

لم يكن آبيثار يريح نفسه ورجاله إلاّ بالقدر الذي يكفي لراحة رواحلهم، فكان يواصل السير في الليل ولا يتوقف إلاّ عند الظهيرة اتقاء لحرّ الهجير. كانت صورة مولوده المنتظر ترتسم بين عينيه وفي الأفق كما ترتسم صورة زوجته الحسناء حورانة بين انحناءات النجوم وخطوط السماء. هاجمه شوق كبير وحنين لم تعهده نفسه، تماما مثل ذلك الحنين الذي أصبح يراوده ويجتاح صدره لأرض أبيه نازر. كان يتساءل مع نفسه: "ترى ماذا سيكون مصير ابني لوقضيت في هذه الحرب؟ هل سيأخذ طباع أهل سدوم الفاسدة؟ هل سيعرف دين جده وأبيه؟" وفجأة هاجمه هاتف غريب نغّص عليه صفاء ذهنه وقطع شروده. "ترى هل كانت حورانة تحفظ عرضي وتصون شرفي في غيابي أما أنها كانت تعبث كما تفعل سائر نساء سدوم؟ هل بقيت وفية لي ومخلصة؟" كان هذا السؤال الذي هجم على فكره فجأة كافيا ليجعل رأسه تغلي من الغضب وصدره يضيق حتى يكاد يخنق قلبه وينتفض جسده، حتى أنه لم يشعر بنفسه إلاّ وهو يسحب بقوة لجام حصانه الذي أطلق العنان لحافره يلتهم الأرض ويثير زوبعة من خلفه.

لقد بات آبيثار مقتنعا أن الأقدار التي حكمت بنجاته من الموت في الحرب لم تفعل ذلك إلاّ ليراجع حساباته ويستفيق من غوايته وإذا لم يفعل فلن يسلم من قدر أكثر بشاعة وفظاعة مما كان يتصور وما هو إلاّ عقاب محتوم جزاء كل ما جنت يداه، ولا بدّ أن يدفع ثمن جرائمه حتى أنه أصبح مقتنعا

تماما أن عقاب الرب وانتقامه لن يتأخرا كثيرا، إذا لم يبادر ويتوب عن أفعاله ويصلح أخطائه.

استمر آبيثار في رحلته واستمرت معه هواجسه وأفكاره تطارده من كل جانب، حتى خُيِّل إليه أن هذه الرحلة لن تنتهي أبدا، رغم أنه لم يعد يفصله عن أرض سدوم إلاّ مسيرة يوم وليلة.

على الجانب الآخر من أرض ثامار كان القائد رابيم وجنده لا يزالون في غمرة احتفالاتهم ينتشون بالانتصار مع حلفائهم الآموريين، الأهازيج تصدح في كل مكان، نيران المشاعل الموقدة تضيء كل شبر وكل ركن، والقرابين تنحر شكرا وتعظيما لبركة الإله بعل، الزينة تملأ المكان وأجواء البهجة تطغى على الأهالي .

انقضى أسبوع بأكمله على المعركة واطمأن الآموريون بنصرهم، فقرر الملك بارخ أن يختتم احتفالاته تلك بوليمة ضخمة تقام على شرف قادة جيش سدوم قبل رحيلهم امتنانا لهم وعرفانا بجميلهم، فتذبح فيها الذبائح وتُنصب الموائد في الساحات والميادين وعليها ما لذ وطاب من أشهى الأطعمة والأشربة وتسقى فيها الخمر، حتى لا يبيت شخص من أهل ثامار إلاّ وقد مُلأت بطنه بالطعام وسُقيت الشراب.لم تكد ليلة الاحتفال الكبير تلك تنتصف حتى كان جميع أهل ثامار بمن فيهم جند رابيم جميعهم يترنّحون من شدة السكر والثمالة، وقد ثَقُلت أبدانهم وغابت عقولهم، لكن عقولٌ أخرى كانت لا تزال حاضرة وعيون لا تزال متيقظة ومتربصة،

إنهم رجال كدر لعومر الذين أدركوا حينئذ أنه الوقت المناسب للغارة، فأشعلوا النيران وأطلقوا الإشارات المتفق عليها بواسطة أعمدة الدخان الكثيف، فعلوا ذلك دون أن يفطن لهم أحد. التقط كدر لعومر تلك الإشارات على الفور فاستنفر جيشه، وما هي إلا لحظات قليلة حتى تمكن رجاله المتواجدين داخل الحصن من فتح البوابة الكبرى بعدما قتلوا حراسها الثملين ليدخلها كدر لعومر بقواته ويفتحوا باقي الأبواب ويقتحموا الحصون. نجحت الخطة وأصبح كدر لعومر في قلب أرض الآموريين، فشرع هو وجنوده في تنفيذ مذبحة فظيعة بحق جيش رابيم والآموريين على السواء، ولم يسلم منهم حتى الأهالي، قتلوا الرجال العزل والشيوخ، كانوا يقتلون كل من تقع عليه عيونهم، ويذبحون كل من يجدونه في طريقهم دون أدنى شفقة، حتى صارت الدماء تجري مثل السواقي في الطرقات والجثث تملأ الساحات والميادين، أثخنوا في القتل وأسرفوا رغم أنهم لم يجدوا أدنى مقاومة، ونكّلوا بالجثث، فثكّلوا الأمهات ورمّلوا النساء ويتّموا الأطفال، وتحولت الأهازيج إلى عويل والغناء إلى صراخ وارتفعت أصوات النساء بالنحيب وهن يرين مصارع رجالهم واقتياد بناتهم كسبايا.

تمكن كدر لعومر من قتل الملك بارخ والقائد رابيم وأجهز على جميع كهنة المعبد، واستمرت المذبحة طوال الليل حتى أصبحت الأرض تضيق بالأجساد المتناثرة وباتت الطرق والجدران مخضبة بالدماء والأشلاء وكأن السماء أمطرت كسفا وموتا أسودَ.

مع طلوع الفجر كان كدر لعومر قد انتهى من الفتك بكل أعدائه وأحكم سيطرته على حصون ثامار بعدما قتل رجالها وسبا نسائهم وغنم أموالهم وممتلكاتهم، ثم أقام على شؤونهم أحد الفرسان الموثوق بولائهم له من قادة الجيش وترك تحت إمرته كتيبة من الجنود يعينونه ويساعدونه على تدبير شؤون المدينة من بعده، وعزم على الخروج لأرض سدوم وعمورة وممالك غور الأردن، وفكّر قبل خروجه في القيام بخدعة صغيرة وماكرة لكنها ستُمهّد له أرض المعركة القادمة وتُوفّر عليه الكثير من الجهد لخوض ما تبقى من حملات عسكرية حاسمة. فكتب كتابا إلى بارع ملك سدوم على لسان بارخ ملك ثامار شكره فيه على تلبية طلبه وإمداده بالجند والعتاد والمؤونة، وكال له عبارات الثناء والمديح والإطراء عليه وعلى قواته وأكد له اندحار جيش بابل، وفرارهم إلى بلادهم بلا رجعة، كما أخبره بقرب عودة القوات خلال أيام حاملة له وللكاهنة العظيمة ما تيسر من الهدايا والعطايا، ولم ينس كدر لعومر أن يَمهَر خطابه ذلك بختم الملك بارخ الذي استولى عليه حتى يُحكم الفخ وتنطلي الحيلة على عدوه، ثم قام بإرسال الرسالة مع حمام البريد الذي يتم إرساله عادة إلى سدوم.

في هذه الأثناء كان آبيثار ورجاله يقفون على أعتاب البوابة، أخيرا سيرى زوجته التي لا يعرف بعد إن كانت قد وَضعت حملها أم لا.

ذاع خبر وصوله في كل أرجاء سدوم فأقبل عليه الناس عامتهم وخاصتهم ينتظرون سماع خبر معركة ثامار فمنذ وصول أخبار حملة كدر لعومر

والخوف يملأ نفوسهم ويقض مضاجعهم، حتى استحالت حياتهم إلى جحيم، وسكنهم الرعب، فأطال ليلهم ونغَّص عيشهم وكدّر أُنسهم. لم يأبه آبيثار للحشود التي تحلقت حوله، بل تجاهل جزعهم وانزعج من حصارهم له، وهوغير مقدر لتعطشهم لسماع خبر المعركة وهمّ بالتوجه إلى بيته كي يلقى حبيبته حورانه لكن الجموع التي تحلّقت حوله منعته من التقدم وأعاقت طريقه حتى عمّت الجلبة المكان وعلت الأصوات فلم يجد بُدًّا من أن يُطفئ لهفهم ويُبدّد مخاوفهم ويبشّرهم بخبر النصر على جيش بابل واندحاره، فتعالت صيحات الفرح وارتفعت أصوات الرجال بالهتاف وصَدَحت حناجر النساء بالزغاريد، وانطلقت الجموع في سائر الدروب والطرقات تحمل البشرى، وأطلق معها آبيثار العنان لفرسه يخترق الأزقة والدروب حتى وصل إلى باب بيته، فقفز من على صهوة جواده ودفع الباب برجله كأنه لم يفرغ بعد من غزوته، كانت خادمة زوجته أول مستقبليه فتجاهلها بل لم يرد حتى على تحيتها وترحيبها بمقدمه، فشوقه لـحورانه وأخبار طفله الذي تحمله كان كبيرا وأخيرا ها هي أمامه، انقض عليها، احتواها بين ذراعيه بكل قوة حتى كادت ضلوعها أن تنخلع بين يديه، لم تستطع أن تتحمل شوقه الجارف، وقبضته القوية على ذراعيها وجسدها الناعم، رغم سعادتها بعودته، ولم تجد ما يخلّصها إلاّ خبر وضعها لمولودهما الأول، فقالت:

-على رسلك آبيثار ألا تتمهل قليلا وتترك بعضا من أحضانك وشوقك لابنك ياكين؟

هذا الخبر هو وحده كان كفيلا بكبح جماحه وجعله يهدأ ويستكين قبل أن يسألها: ابني ياكين؟

- حورانة : نعم لقد وضعت حملي قبل نحو أسبوعين وقد اختارت له الكاهنة العظيمة اسم ياكين.

- آبيثار: وأين هو ولدي؟ لقد كنت أمني نفسي بحضور مولده، حتى أستقبله بنفسي في أول عهده بالدنيا... وقبل أن يكمل حديثه دخلت خادمته تحمله بين يديها قائلة:

-ها هو ولدكم سيدي آبيثار مبارك ما رزقتم ومباركة أقدامه، ليحفظه لكم الإله بعل .

أخذه منها دون أن يأبه بدعواتها، وضمه إلى صدره في حنان وكأنه صار أبا للمرة الأولى، لم يكن شعوره هو نفسه مع أبنائه وبناته الذين رزق بهم من قبل، ربما غيّرت المدنية من طباعه أو ربما هو دائما شغفه بحورانة ينعكس على حبه لوليده أو لأنه كان موقنا أنه ربما أخطأ في حق وليده لأنه سينشأ في بيئة غير سليمة اخلاقيا وربما سيتدين بدين خاطئ ومحرف عكس بقية إخوته.كان في غمرة سعادته، وهو يحتضنه بين ذراعيه أحس بنشوة وسرور كبيرين، لم يقطعهما عليه سوى مبعوث الملك بارع الذي طرق بابه يطلب حضوره إلى القصر على وجه السرعة.

خرج آبيثار من بيته على مضض ملبيا نداء الملك، وما هي إلاّ لحظات حتى وقف بين يديه، فوجد عنده الكاهنة العظيمة ووزيره وسائر كبراء سدوم وسادتها وكهنتها، كان الملك بارع متجهما عابسا ونظرات الغضب الشديد تتطاير من عينيه :

تقدم آبيثار قائلا : فليحيا الملك بارع العظيم.

- الملك (مجيبا في غضب): يبدو أنّ مقامك بيننا كل هذه المدّة لم يغير من طباعك وصفاقتك البدوية حتّى أنك لم تتعلم كيف تحفظ الاحترام الواجب للملك ؟

آبيثار (منتفضا): معذرة يا سيدي ولكن لا أظنني فعلت شيئا يجلب علي سخطك هذا أيها الملك؟

تدخل الوزير قائلا :

- لا ينبغي لصهر الكاهنة العظيمة وهو أحد قادة الجند الكبار، أن يعود من ساحة المعركة وينزل في بيته وبين أهله قبل أن يقف بين يدي الملك. كما لا يجوز بأي حال من الأحوال أن تعرف العامة من الناس والرعاع بأخبار حربنا مع جيوش بابل قبل الملك نفسه. هنا تدخلت الكاهنة أديرا محاولة تهدئة الوضع والتقليل من سخط الملك والحيلولة دون حدّة آبيثار فهي تعرف طبيعته البدوية وافتقاره للباقة والكياسة اللاّزمتين في مثل هذه الأوقات قائلة:

- معذرة أيها الملك، أرجو أن تغفر لآبيثار تصرفه هذا، فهو بالتأكيد مخطئ لكنه لم يقصد بأي حال التقليل من احترامكم، وإنما نزوله في بيته أوّلا كان بسبب عدم إلمامه بالقواعد والقوانين التي تحكم علاقات السادة وقادة الجند بالبلاط، فضلا عن قلقه وانشغاله بالاطمئنان على صحة زوجته التي وضعت مولودها قبل أيام قليلة.

- آبيثار : هوكذلك تماما ، سيدي الملك وأرجو من جانبكم الصفح والعفو.

- الملك : حسنا، دعنا من هذا الآن وأخبرني هل صحيح ما يتداوله الناس؟ هل حقا انتصر جيشنا على جيش كدر لعومر؟

- آبيثار : نعم سيدي الملك لقد تمكن جيشكم من الوقوف في وجه كدر لعومر ودحر قواته، وإرغامه على التراجع عن أرض ثامار .... لم يكد ينتهي آبيثار من حديثه حتى ساد القاعة الملكية هرج ومرج، فرح كبير وصخب لم يقطعه سوى سؤال الملك (مستغربا) :

- وماذا عن القائد رابيم وسائر الجند؟ لماذا لا أراهم قد عادوا هم أيضا؟

-آبيثار (مجيبا): لقد استبقاهم الملك بارخ عنده من أجل الاحتفال بالنصر وحتى ينالوا قسطا من الراحة ويسعفوا الجرحى، ويحرقوا الجثث بعد تلك المعركة الدامية التي خضناها، فرغم انتصارنا إلاّ أننا لا ننكر يا سيدي أن قواتنا تكبدت خسائر فادحة وأن القتال كلفنا عددا يصعب حصره من القتلى، أما عدد الجرحى فيقدرون بالآلاف، وكان لزاما على القائد رابيم أن

يبقى بأرض ثامار حتى يتم اسعاف الجرحى ومداواتهم واستعادة الجند لعافيتهم، قبل تجشم مشاق العودة من جديد. بينما عجَّلت أنا في العودة إلى سدوم لأحمل بشرى الانتصار لجنابكم، حتى تطمئنوا ويهدأ بالكم.

الملك : جميل جدا ، رغم الخسائر التي تكبدناها، المهم أن تضحيات جنودنا لم تذهب سُدى، فخبر النصر هو أحسن عزاء لنا وفيه مواساة كبيرة لنا ولكل السدوميين، فلا توجد حرب دون خسائر.

الوزير: فليسمح لي سيدي الملك، أنا لا أريد أن أفسد فرحتكم بالنصر ولا أنوي التشكيك في رواية جناب القائد آبيثار ولا التقليل من قوة وكفاءة جيشنا لكن يبدو أن جناب آبيثار خرج من أرض ثامار بمجرد انتهاء المعركة ولا ندري ما الذي يكون قد حدث بعدها فلربما رجع كدر لعومر بمعية رجاله وأعاد الغارة على حصون الملك بارخ.

- الملك: لا أفهم مرادك من هذا الكلام أيها الوزير فهلاّ أفصحت؟

- الوزير: أقصد يا سيدي الملك أنه من الواجب علينا التريث وأن نُبقي على استنفارنا كما هو دون تهاون ولا تراخ، وأن يستمر رباط قواتنا على البوابات حتى يتسنى لنا التحقق من خبر النصر والتأكد من زوال الخطر نهائيا.

الملك : رأيك سديد واقتراحك في محله أيها الوزير، لكن كيف يمكننا التحقق من هذا كله ونحن على مسيرة كذا يوم من أرض ثامار؟

آبيثار مقاطعا الوزير : فليطمئن قلب الملك، وليطمئن قلب الوزير أيضا، لقد عزم الملك بارخ أن يرسل لجنابكم بريدا بواسطة الحمام ليُطلعكم

على الوضع بمجرد الانتهاء من حرق الجثث واستتباب الأمر بأرض ثامار وما هي إلاّ أن يُصبحكم أو يمسيكم خطابه.

الملك: عظيم، عظيم، إذن فلتترقب قدوم البريد أيها الوزير وأخبرني حال وصوله ، بإمكان الجميع أن ينصرفوا الآن.

كان سكان سدوم ينتظرون بلهفة تأكيد خبر النصر وزوال خطر البابليين عن أرضهم، فقد ضاقوا ذرعا بالقيود التي تفرضها حالة الاستنفار عليهم وأرهقهم الانتظار وهم متوشحين سيوفهم ليل نهار، ودروعهم جاثمة على صدورهم، أما آبيثار فلم يكن يلبث أن يرتمي بين أحضان زوجته حورانة ولا يمل من ملاعبة طفله الذي فاق حبه في قلبه كل الوصف غير آبه بتحذيرات حماته الكاهنة العظيمة، والتي لم تخفِ قلقها من أن يكون ما حمله من خبر النصر غير دقيق أو فيه تلفيق، فلم تكن تفتأ تسأله عن صحة الأخبار التي حملها إليهم بل وتعيد السؤال لمرات عديدة طوال النهار وتذكره أن حياته ستكون ثمنا لأي تدليس ولن ينفعه وقتئذ أن يكون صهرها، بينما كان يطمئنها بكلمات مقتضبة عن صحة ما نقله من أخبار، ويصِرّ أنه لا يوجد ما يدعوها للشك والريبة في كلامه.

انقضى يومين وقبل انتصاف الثالث حط الخبر السار من السماء قادما من أرض ثامار، وحلّت البشرى معلقة إلى ساق حمام، لكن لا أحد كان يدرك أن ذلك الخبر السار كان كالعسل المرشوش بالسم، جاء البريد الذي يحمل البشارة وأية بشارة؟ الموت المغلف بعبارات الشكر والثناء، أرسلته البلايا

القادمة إليهم من الشرق تستعجل مَناياهم على رؤوس الرماح وألوية الغدر المعقودة بإحكام.

استلم الوزير الأعظم خطاب الملك بارخ ممهورا ومختوما، كما يجب وكما جرت العادة أن يصل إلى ديوان البريد، ولم يرتد إليه طرفه إلاّ وهو واقف بين يدي سيده مُتهللا ومبشرا:

سيدي الملك لقد صحّ الخبر وتأكد النصر، وها هو خطاب ملك ثامار إليكم يمجد جنابكم ويعرب عن شكره وامتنانه العظيم لكم، ويبشركم بقرب عودة جيشكم بقيادة القائد العظيم رابيم حاملا إليكم صلوات الشكر من شعب ثامار.

الملك: إنه خير ما دخلت به عليّ منذ زمن أيها الوزير، صدق آبيثار إذن واندحر كدر لعومر فليتمجد اسم الإله بعل .

الوزير: اسمح لي سيدي الملك أن أبارك لكم هذا الانتصار المجيد، فلولا بصيرتكم وبُعدِ نظركم لكانت حصون ثامار قد وقعت بيد العدو، ولتمكنت قوات كدر لعومر من الوصول إلى أسوارنا أيضا.

الكاهنة العظيمة: مبارك أنت ومجد الإله يغشاك أيّها الملك، إن هذا الانتصار يستلزم منا رفع ألسنة النار المقدسة في أطراف المملكة وتلاوة صلوات الشكر في كل معابد سدوم وبقية المدن، ويجب تنفيذ الشكر كما يقتضي الحال بتقديم القرابين والذبائح امتنانا وعرفانا بجميل الإله العظيم بعل وعطفه وقوّته التي حلّت بجيشنا حتى انتصرنا على العدو.

الملك : صَدقت الكاهنة العظيمة، يجب أن نقدم ما يليق بالإله العظيم عرفانا بجميل صنعته فينا، لكن قبل ذلك يجب أن نطمئن حلفاءنا في بقية المدن العظيمة. اعمل إذن أيها الوزير على أن يخرج الرُّسل حالا ليزفوا الخبر إلى ملوك عمورة وأدومة وصبوئيم وصوغر، فيخبروهم ببلاء جيشنا العظيم وزوال خطر البابليين، وليخرج المنادي في كل شوارع وساحات سدوم معلنا انتهاء الاستنفار، ولا تنسوا أن تعلّقوا الزينة من اليوم بكل ربوع المدينة وأوقدوا المشاعل ولتُرفع النار المقدسة في كل مكان.

الوزير: أمرك جناب الملك، لكن هل تنوون يا مولاي أن تقيموا احتفالا بالنصر العظيم حتى نقوم بالتحضير لذلك أيضا؟

الملك: نعم بالتأكيد فليس هناك مناسبة أعظم من هذه للاحتفال، وقبل ذلك أخبر عامة الناس وخاصتهم أن يحضروا غدا إلى المعبد الكبير من أجل أداء الترانيم المقدسة وتلاوة صلوات الشكر للإله بعل وتقديم قرابينهم وهداياهم .

الوزير: أمر مولاي الملك.

الفصل السابع: سدوم وطقوس المجون

ظن أهل سدوم أن الخطر الذي كان يتهددهم قد زال وانتهى وأن عدوهم أدبر عنهم إلى غير رجعة، فأطلقوا العنان لأفراحهم واحتفالاتهم، ووضعوا أسلحتهم وتخلصوا من أثقالهم وأنهوا استنفارهم. وبما أن نفوسهم المريضة كانت لا تقوى على تحمل الشدة والصبر على المحن والبلايا، فسرعان ما عادوا إلى سيرتهم الأولى بل وزادت المحنة من تعطشهم للفسق والعربدة والمجون، وغصت المواخير والحانات بروادها وهم يقارعون كؤوس الخمر المترعة التي ذهبت بعقولهم وأبدانهم تتراقص على أنغام المعازف وشدو القيان.

ارتدت المدينة حلتها الجديدة وتزينت بكل أشكال الزينة والرايات والأعلام وأهازيج النصر تصدح في الساحات والميادين والبهجة تعم المكان ومظاهر الفرح والسرور بادية على أهلها الذين لبسوا أفخر الملابس الحريرية والثياب التي عادة ما تكشف عن أجسادهم الموشومة بصور للأفاعي والنساء العاريات والثيران المجنحة .

كان من عادة أهل "سدوم " أن يُمعنوا في فحشهم ويبتكروا من الرذائل ما لم يسبقهم إليه أحد ظنا منهم أن ذلك من صميم الدين، بل كانوا يعتبرون ذلك من أعظم شعائر العبادة فكانوا يهتكون أعراضهم بأيديهم ويستبيحون

محارمهم ويستعرضون مفاتن نسائهم في نواديهم ويتبادلون زوجاتهم وبناتهم فيما بينهم، بل ويشجعونهن على الزنى وإنجاب الأطفال عن طريق السِّفاح، وكان من أقسى وأفظع عاداتهم أن يقدموا أبناءهم الذين أنجبوهم من الزنى، كقرابين للإله بعل فيحرقونهم وهم على قيد الحياة بدعوى أن النار المقدسة التي هي روح الرب تأكل أجسادهم فيشتركون بذلك في شيء من الألوهية مع الإله، أو يقومون بقطع شراييهم ويريقوا بعض دمائهم ليخلطوها مع الدقيق والماء من أجل تحضير ما كانوا يُسمّونها الفطيرة المقدسة[9]، ويخصصون لها يوما خاصا بها يسمى عيد الفصح فيقيمون لذلك احتفالا دمويا في معابدهم وهياكلهم وسط طقوس شاذة وغريبة.

لم يكن آبيثار يدرك حجم الخطر الذي كان يتهدده لكن حدسه حدّثه بأن خطبا عظيما سيحدث وأنه حان الوقت لينجو بنفسه وزوجته وابنه ويغادر هذه المدينة الغارقة في الجهل والخرافة والممعنة في فحشها وفجورها الذي تعدّى كل الحدود. في هذه الأثناء كانت الكاهنة العظيمة أديرا باعتبارها كبيرة الكهنة ورئيسة المعبد تشرف على وضع اللمسات الأخيرة ليوم الاحتفال العظيم والذي أراد الملك بارع أن يجعل منه عيدا استثنائيا لشكر الإله بعل الذي أنقذه وحفظ له ملكه.

أمرت الكاهنة بتجهيز القاعة الكبرى التي ستحتضن الحفل العظيم وتم توجيه دعوات للسادة وخاصة الناس من قادة الجيش وكبار الكهنة وأشراف المملكة المقربين من البلاط وكبار التجار وذوي المال والثروة،

وأمرت بتحضير أفخر أنواع الشراب وتجهيز أشهى أنواع الطعام وإشعال الشموع وإحراق أجود أنواع البخور التي كان دخانها الأبيض يتصاعد كأعمدة تسافر إلى السماء، ولم تنس أن تنتقي للحفل أجمل النساء وأكثرهن فتنة وجمالا وتغنجا ودلالاً من بنات سدوم خصوصا اليافعات منهن والأبكار لخدمة الضيوف .

وبما أن المناسبة استثنائية فقد رأى الكهنة أن يبتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من سالف الأمم التي خلت على مرّ العصور والأزمان، فأمروا بجلب وإحضار عدد من الأطفال والغلمان ليغتالوا براءتهم ويقدموا أجسادهم الزكية لمُدمني الفاحشة ومجرمي الشهوة المحرمة. هذا وقد أمرت الكاهنة بتخصيص الساحة الخارجية لذبح القرابين وإهراق الدماء واستقبال هدايا العامة وإقامة طقوس العبادة ولتكون بعدها مسرحا لاحتفالات عامة الشعب تقدَّم لهم فيها عروض الشعر وألعاب السّحر وفنون المصارعة والقتال وسباق الخيل ومناقرة الديوك والحمام.

وبحلول صباح اليوم الموالي كان الجميع في أبهى حلة وبدأت الحشود بالتوجه منذ الساعات الأولى لساحة المعبد الأعظم، يتسابقون لتقديم قرابينهم وهداياهم وأخذ أمكنتهم لحضور مراسيم الاحتفال الكبير وإقامة طقوسهم الشاذة الممعنة في الجهل والخرافة.

وسط كل هذا كان آبيثار يشهد تلك المذبحة العظيمة التي أُزهقت فيها أرواح العشرات من البقر والثيران وأريقت فيها دماء الأطفال وأزهقت

أرواحهم في مشاهد فظيعة، مقززه ومثيرة للغثيان كانت مدعاة لسخطه واستهجانه.

وبحلول المساء كانت الاحتفالات قد وصلت إلى أوجها، مشاعل النيران تُقدح في كل مكان وروائح البخور المتصاعدة في الأركان تختلط برائحة الجثث المتفحمة والدماء، الرجال والنساء يترنحون من شدة السكر والثمالة، وحناجر القيان تصدح بالأغاني والألحان، الكل يرقص ويغني، النساء شبه عرايا يتمايلن في خيلاء ويرتمين في أحضان الرجال كأنها حفلة جنس جماعية.

كانت مكانة آبيثار باعتباره أحد قادة الجيش وقربه من البلاط وتؤهله لحضور مراسم الاحتفالات الخاصة التي تقام في القاعة الكبرى داخل المعبد بحضور الملك بارع وتحت رعايته وقد توصل فعلا بدعوة الحضور، فكان لزاما عليه أن يرتدي أجمل ما لديه من أثواب، وأن يتطيّب بأجود العطور وأزكاها ثم يصطحب معه زوجته الحسناء حورانة التي كانت تفوقه أناقة وجمالا وبهاءً، وهي في قمة تبرّجها وزينتها، وبالرغم من أن لباسها الغير محتشم كان يثير غيرته وانزعاجه، إلاّ أنه لم يكن يملك أن يرغمها على تغييره باعتبار أنها سيدة من سيدات المعبد وأن قانون الكهانة الساري في سدوم كان يُلزمها بارتداء ما تختاره الكاهنة العظيمة من لباس وحُلي وزينة لها ولغيرها من زوجات وبنات الكهنة في مثل هذه المناسبات.

إلتحق آبيثار وحورانة بقاعة المعبد الكبرى أين سيقام الإحتفال وانضموا إلى باقي الضيوف، كان جميع الحاضرين مستمتعين بعزف القيان اللواتي كُن يضربن الدفوف والعيدان ويصدحن بالأنغام على المعازف، منتشين بنفحات البخور الزكية التي أعبقت المكان بروائح العود والعنبر والمسك والصندل، ويطوف عليهم الخدم والسَّدَنَة بكؤوس مصنوعة من الذهب والفضة مترعة بأصناف الخمور والنبيذ، في انتظار وصول الملك بارع لتبدأ فصول أخرى من مراسيم الاحتفال.

حل المساء وارتفعت أصوات نافخي الأبواق وقارعي الطبول، معلنة وصول موكب الملك إلى المعبد، والذي كانت تتقدمه عربة كبيرة مصنوعة من خشب الأرز ومطلية بلون أحمر قاني تجرها خيول مزينة بكساء جلدي أحمر اللون على متنها كل من الملك بارع وزوجته وعلى جانبيها يجري حرّاس الملك يتبعهم عدد من قادة الجند. وتليها مركبة أخرى على متنها الأمراء من أبناء الملك وبناته.

سارعت الكاهنة العظيمة أديرا لتكون في مقدمة مستقبلي الملك إلى جانب وزيره الأعظم ومعهما كبار الكهنة وسدنة المعبد، فمراسيم الإحتفال وطقوس الكهنوت تفرض بأن لا يدخل الملك المعبد حتى يأكل من الفطيرة المقدسة[9] التي أعدتها الكاهنة، لهذه المناسبة.

نزل الملك بارع من عربته ،وتوجه نحو بوابة المعبد مترجّلا على البساط الأحمر الصوفي المفروش على الأرض، تتبعه زوجته وباقي حاشيته،

كان بارع يمشي في خيلاء وزهو مُمسكا بصولجانه ورافعا رأسه للأعلى، متطلعا للحشود الغفيرة من أهل سدوم المصطفّة على جنبات الطريق ينتظرون قدومه، وغير آبه لأولئك الصغار من أبناء السدنة وهم ينثرون عليه أوراق الزهر والريحان. كانت الكاهنة أديرا تنتظره عند البوابة وهي تحمل في يديها قصعة كبيرة عليها الفطيرة المقدسة والمصنوعة من الدقيق الأبيض المنخول، معجونة بمزيج الماء والدم، والمحشوة بعجين التمر ومكسرات الجوز واللوز والفستق ومرشوشة بحبات السمسم والسانوج الأسود. وبمجرد أن مد الملك يده إلى القصعة بدأ الكهنة في ترتيل صلواتهم وقرع أجراسهم الصغيرة بين بأيديهم:"مباركة أيامكِ يا سدوم يا دُرَّة الممالك وتاج الرب على الأرض، ومُباركُ ملكنا العظيم بارع هبة الإله بعل وسلطانه الذي يمشي بيننا تغشاه عظمة الكهنوت المقدس وتنكسر أشواك الموت تحت قدميه. دماء أبناء سدوم الزكية تُهرق مُتدفقة على محرابك فداء يليق بمقامك يا عظيم الآلهة وتقدم أجسادهم الفَتِيَّة قربانا لنارك المقدسة كما يليق بعزك وجبروتك وسطوتك التي قهرت الأعداء ومنحتنا النصر والمجد. مباركة خطواتك أيها الملك بارع يا سليل الإله واختياره ووصيته ومباركة مملكة سدوم عروس الأرض". أكل الملك بارع من الفطيرة المقدسة ثم ناولها لزوجته وأبناءه ليأكلوا منها بدورهم وينالوا بركتها، وأعطى إذنه لباقي الكهنة لكي يوزعوا باقي الفطائر التي تم إعدادها على كل من حضر في القاعة ومن حالفه الحظ من العامة حتى تحل عليهم البركة

جميعا، ثم أمر بذبح مائة ثور وتوزيع لحومها على أهل المدينة وتعميد الحِسان من عذراوات سدوم وغلمانها، بدمائها إيذانا بجاهزيتهم لمراسم الفسق والخطيئة والمجون.

دخل الملك بارع إلى المعبد وأخذ مكانه في صدر القاعة الكبرى وتحلّق حوله خدمه يحملون المراوح. فيما جلست زوجته على يمينه ووزيره على يساره.

أخذت الكاهنة العظيمة بدورها مكانها عند المحراب المقدّس متوسطة كبار الكهنة وسدنة المعبد، فيما كان الخدم يطوفون بأنواع الشراب وعصير الفواكه والخمور والنبيذ على الحاضرين. روائح الصندل المحترق والعود والعنبر تتصاعد من المباخر المنتصبة في كل الأركان، وموسيقى المعازف وأصوات القيان تصدح بأجمل الأغاني وأعذب الألحان.

كان آبيثار وسط كل هذا الزخم واجما صامتا، مذهولا ومندهشا من كل ما يراه، فالجميع في أبهى حلّة والصخب والترف بلغ مداه، الرجال يلتحفون أثواب زاهية الألوان مصنوعة من الحرير والأصواف المنعمة والأوبار المدَبَّغة بجلود الفهود والنمور المجلوبة من الهند تكشف عن ركبهم وتُظهر الرسوم الموشومة بحرفية على ظهورهم وذراعاتهم، أما النساء فكانت زينتهن مبالغ فيها وتبرجهن لافتا، المساحيق تزيد وجهوهن حسنا وبهاء ونضارة، ويرتدين ملابس وأثواب حريرية تكشف أجسادهن البضة الناعمة ومتمنطقات بأحزمة من أجود أنواع الوبر المكسو بالذهب فيما تتدلى

سلاسل وعناقيد ذهبية على نحورهن وفوق صدورهن مرصّعة بأحجار كريمة نادرة من الزمرد والمرجان والبلور منقوش عليها حروف أسمائهن، والحلي تُثقل أياديهن وأرجلهن بأسأور وخلاخل الذهب والتي كانت تزيدهن جمالا وجاذبية، وفتنة.

أحس آبيثار لوهلة أنه غريب عن كل هذا العالم الذي بدا فيه تائها غريبا وكأنه يكتشفه لأول مرة بالرغم من مرور وقت ليس باليسير على مقامه في سدوم وبرغم المكانة التي أصبح يحتلها بين أهلها وكبرائها، غير أن ذلك كله لم يكن ليَجعله يشعر بالأمان والسكينة، ذلك الإحساس الذي فارقه منذ أن فارق أرض نازر المباركة، والذي حل محله الآن إحساس بالخوف والقلق من مصير محتوم ينتظره ولا يعلم متى أوانه.

في غمرة الفرح ونشوته أمر الوزير كل من في القاعة بالتزام الصمت والإنصات لكلمة الملك التي سيلقيها بمناسبة النصر والتي سيعلن من خلالها عن خبر هام جدًّا.سكت كل من في القاعة حتى لم تعُد تُسمع سوى أصوات النار تقدح في المشاعل والمباخر، واشرأبت الأعناق صوب الملك الذي بدأ حديثه:

- "بإسمك إلهنا بعل العظيم ملك الملوك وسيد الأكوان أبارك لشعب سدوم العظيم وأخواتها هذا النصر المجيد على أعدائنا الذين خرجوا بِشرِّهم من أرض بابل يطلبون أرضنا وخيرات بلادنا التي أنعمت بها علينا، لكن مجدك كان معنا وأعان جيشنا حتى انتصر عليهم فدحرهم عن تخوم ثامار،

ورجعوا عنا للأبد مذؤومين مدحورين، ولا شك أن هذا النصر يقتضي من كل سدومي أن يبذل في سبيله ما يليق بمكانة الإله العظيم من أسباب الشكر والامتنان، حتى يظل مجد الرب العظيم قائما يرعانا وعزته وبركته تغشانا وتحمي أرضنا، وسأكون أول من يبذُل في شكر الإله أعظم العطايا وأنفسها، فقررت أن يكون أعظم قرابيني هو دم ابني الذي يأتيني من إحدى سيدات المعبد العظيم، والتي سيختارها لي هذه الليلة الإله بعل بنفسه من بين أقلام الكهنة فمن يخرج اسمها تكون زوجة لابن الإله ويكون نسلها مقدسا ودمه خالصا له. مباركة أرض سدوم وأهلها والموت للأعداء".

لم يكد ينتهي الملك بارع من كلمته حتى علت أصوات الأجراس وصدحت حناجر الكهنة مهلّلة مستبشرة، فأعظم العبادات تلك التي تكون من نسل الملك وشرف كبير من يختارها الإله لتعاشر روحه المتصلة بروح ابنه الملك بارع، كان هذا الأمر يقتضي أن تقوم الكاهنة العظيمة بتحضير كل النساء من زوجات وبنات الكهنة المتزوجات والعازبات منهن على السواء وكتابة أسمائهن على أقلام الكهنة والسدنة فيرمي الكهنة بسهامهم التي تحمل الأقلام على لوح مخصص لهذا الغرض، ومن يثبت اسمها على اللوح تكون هي المرأة المختارة لمرافقة الملك ويكون أول نسلها من الذكور قربانا للإله بعل يُستنزف دمه وتُحرق جثته.

انهمك الخدم والسدنة في تقديم أطباق العشاء الملكي الفاخر لضيوف المعبد وسط ترحاب وحفاوة كبيرين، كانت الكاهنة أديرا حريصة على أن يمر الإحتفال في أجواء مريحة وبهيجة، فيما كان آبيثار غارقا في أفكاره وهواجسه وهو يُجيل النظر في كل ما حوله، من الزينة المُعلّقة على الجدران العالية والقبّة المزركشة بالرسوم والنقوش البديعة، ويتفرس في وجوه التماثيل المنحوتة بإتقان والتي لا يخلو صنعها من حرفية تشهد على مهارة الصَّناع، مباخر ذهبية تحرق أجود أنواع البخور، ومئات المشاعل تُضيء المكان، هرج ومرج، وطرب وقيان، وخمر ونساء، فسق وفجور بلغ المدى وتجاوز التصور والخيال.

فكّر في من يا ترى ستكون خليلة الملك من بين كل هاته النسوة السافرات العاريات المنتشيات بجمالهن والمتحلّلات من كل القيود؟ ترى هل تكون زوجته الشابة حورانة من بين المرشحات؟ مجرّد التفكير في هذا الأمر جعل الدم يغلي في عروقه، وأنفاسه تنقبض حتى كاد قلبه أن ينخلع من صدره، ثم ما لبث أن تدارك نفسه وعاد إلى رُشده، طبعا لا يمكن أبدا أن يحدث هذا، لا يمكن أن يكون اسم حورانة من بين الأسماء المُقترعة، ليس فقط لأنها زوجته، ولكن لأنها ابنة غير شرعية للملك من الكاهنة أديرا ولن يقوم الملك بافتراس ابنته التي من صُلبه مثلما لا يمكن للكاهنة أن تسلم ابنتها بيدها للملك وتعبث بشرفها وتضحي بسعادتها من أجل طقوس وثنية. هكذا كان آبيثار يُحدّث نفسه محاولا أن يُهدّأ من روعه ويطرد

مخاوفه، غير أن كل ما شهده ولا زال يشهده جعله يقطع أمرا لن يثنيه عنه أحد، لقد قرّر الرحيل عن سدوم، إلى غير رجعة يصطحب معه زوجته وابنه ويرحل في غفلة من الناس ودون أن يُحس به أحد، ويعود لأرض نازر حيث لا يَصِلُون إليه.

كان هذا القرار كفيلا بأن يُضفيَ على نفس آبيثار بعضا من السكينة ويُشعره بالراحة ويستعيد بعضاً من شهيته ويتناول عشاءه في انتظار ما ستحمله بقية الليل من مفاجئات.

الفصل الثامن : آبيثار وكأس النار

بينما كان الملك بارع وحاشيته وضيوفه مستمتعين بسهرتهم، وماضين في احتفالهم، كانت الأقدار تكيد كيدها وتحيك لهم من الصروف ما لا يخطر لهم على بال ولا يتصوره خيال. فغير بعيد هناك على الجانب الشرقي خلف وادي الأردن، خرجت الجيوش البابلية يقودها الملك الداهية كدر لعومر بعدما استتب له الأمر في ثامار واستراح جنده واستعاد جيشه عافيته، وتَقَوَّت همة قادته بما حققوه من نصر حتى الآن وما غنموه من حروبهم، ولم يعد يفصلهم عن سدوم وعمورة وباقي ممالك كنعان الغنية سوى مسيرة أيام قلائل، تجهزوا لها بخير جَهَاز من مأكل ومشرب وسلاح ورَوَاحِل، وخرجوا نافرين مستنفرين حاملين معهم الموت الناقع يرفرف على رؤوس السيوف، ويمتطي حدود الرماح، والشر يتطاير وراءهم كما يتطاير نقع الأرض خلف حوافر الخيل.

وتستمر ليلة سدوم الحافلة الحالمة، وكأنها ليلة من ليال العمر، صاخبة ماجنة الكل ينتظر بقية المراسم، فقد أنهوا عشاءهم وركّزوا انتباههم على صحن المعبد الذي سيشهد طقوس القرعة المقدسة أين سيرمي الكهنة بأقلامهم على اللوح المثبت في صدر المحراب وبفضل إرادة الإله بعل سيحتفظ اللوح بواحد منها يحمل في جوفه إسم الخليلة التي ستُعاشر الملك

بارع حتّى تضع أوَّل مولود لها، فيكون ذلك المولود قربان الملك المقدس، إلى الإله العظيم بعل، وتفرض طقوس الكهنوت أن تقوم الكاهنة العظيمة بنفسها باستلال السهم من اللوح وتسليمه إلى الملك الذي يكون أوَّل من يطَّلِع على الإسم قبل أن يُعلنه بنفسه على الملأ.

أحضرت الكاهنة العظيمة السهام وأعطت كل واحد من الكهنة سهما ليضع فيه قلمه وكان كل قلم يحمل إسما من أسماء سيدات المعبد الأربعين، وأمرت بعض السدنة برفع الستار عن اللوح المثبت في صدر المحراب تحضيرا لعملية الاقتراع، كما أمرت بإحراق مزيد من البخور وقرِع الأجراس، فيما شرعت هي ومعها جميع الكهنة في ترديد التراتيل والصلاوات بصوت واحد ومرتفع:

- "باسمك راعينا المقدس إلهنا بعل سيد بدايات الخلق عبر الأزل، بقدسية سرّك عبر الأزمان يحيا الإنسان ويموت ليسير إليك، بإسم عظمتك أيّها الإله بعل وسيد الآلهة، نقوم إليك نحن خدمك ومواليك وظل سلطانك على الأرض، نبتهل إليك، باسم الفداء الالهي وباسم القربان لتغشانا بركتك ويتجدد الحب القدسي داخل القلوب والأجساد، اختر لنا بيدك الغالبة الغارفة من نبع الحياة، مَن اسمها مكتوب بالأحرف المقدسة في علياء السموات لتكون خليلة ابن الرب، وأم القربان. بسِرّ الفخر الإلهي الذي يفتح لها ولنا باب الحياة الأبدية، ازرع في جسدها بذرة طيبة، من روحك وماء ولدك ليكون قربان أهل الأرض المباركة إلى الحضرة العلية يَصِلُون به

إليك عبر النار المقدسة ويختلط دمه بخيرات الأرض يأكل منه كل من يؤمن بقدرتك، ولنشكر به نعمك السابغة الفائضة علينا فأنت القدرة المجيدة التي تُنبِت الزرع في مواسمه، وتكسر العدوفي جبروته. بإسمك نرمي سهامنا على اللوح المقدس فاختر لنا أنت المبارك من باركتها حتى يبقى اسمها. في سماوات المجد الأزلية مخلدا".

وما إن انتهى الكهنة من صلاتهم، حتى أطلقوا سهامهم باتجاه اللوح جميعا وفي الآن نفسه، لتتعالى بعدها صيحات وهتافات الحاضرين، الكل يترقب بشوق اسم المرأة التي سيختارها الإله بعل لتحمل نسل "القربان" المقدس، متسائلين عمّن ستنال هذا الشرف العظيم الذي لا تبلغه إلاّ ذات الحظوة والمكانة، ومن تكون صاحبته التي سترفع أهلها وكل عشيرتها إلى أعلى مراتب الإيمان وقمة الوجاهة والسلطان.

وكأن الشر اكتسى بلباس الخير وكأن الخطيئة استحالت عندهم طهارة، كذلك الفسق أصبح في عرفهم فلاحا والفساد بات عين الصلاح ومبعث الطَّهر والنقاء، فكيف عَمِيت بصيرتهم واستحكم الشيطان على عقولهم حتى خالط أجسادهم ونسلهم وسرى فيهم مسرى الدم من الشريان، حتى زاغت نفوسهم واستحلّوا الزنى وبات في عرفهم دينا وأصبح إتيان الرذيلة عندهم طقسا من طقوس العبادة.

وحده آبيثار الذي نهل من حكمة نازر من كان يستهجن في قرارة نفسه هذه السلوكات المشينة والممارسات الباطلة التي ألبسوها ثوب الدين

وغلّفوها بالقدسية الزائفة، كان يعلم جيدا أن الرب الواحد بريء من كل هذه القذارة وأن هذه الطقوس لا تمت للدين الحق بصلة، وما هي إلاّ زيغ واتباع للهوى وسقوط في براثن الشيطان الذي زين لهم الخطيئة وصوّرها لهم على أنها فضيلة.وحده آبيثار من بين كل الحاضرين من كان يرى الأمور على حقيقتها، فكان يعلم يقينا أن هؤلاء الكهنة إنما يقودون شعب سدوم إلى الهاوية وأنهم استخفّوا عقولهم وسفهوا إيمانهم وأنهم إنما يتسلطون عليهم بأكاذيبهم وشعوذتهم وممارساتهم المعنة في الوثنية والشرك ليستحلّوا بها أموالهم ودماء أطفالهم وأجساد بناتهم ونسائهم، ومع هذا كله كان آبيثار مدركا تماما أنه لا فائدة من نصحهم فمن المستحيل إصلاح أمرهم وتقويم نفوسهم التي تعفّنت، وأنه وحده عقاب الرب الكفيل بردعهم وتقويم سلوكهم أو إهلاكهم عن بكرة أبيهم كما فعل مع الأقوام التي كانت قبلهم والتي أهلكها الطوفان.

توجهت الكاهنة العظيمة أديرا نحو اللوح واستلَّت منه السهم الوحيد الذي علِق به، ثم توجهت به إلى الملك بارع سلَّمته إيّاه ثم تراجعت للخلف، تترقب .

عمّ سكوت غريب في كل القاعة وأصبح الصمت يلف المكان واحتبست الأنفاس، كل العيون ملتصقة بالملك بارع الذي أخذ السهم وفتحه وأخرج منه القلم، قرأ بعينيه الإسم، دون أن يُبدِيَ أي رد فعل أو تعليق بل أطرق صامتا لبرهة ونظر للأعناق المشرئبّة إليه في ترقب وفضول دون أن ينبس

ببنت شفة، فيما لم يستطع أي شخص من الحضور أن يفك طلاسم وجهه ولا أن يستنبط منها أي تعابير تدُلّ على أحاسيس الفرح أو الخيبة.

وأخيرا تكلم الملك :"أيها الإله الساكن في الإمتلاء، يا صاحب الخصب والرواء، لأنك اخترت لي من تحمل إليك نسلي من بين بنات شعبك، لأهبه لك أبد الحياة، بإسمك أيها الإله العظيم بعل باسم الحب المقدس أعلن لشعب سدوم حورانة بنت الكاهنة العظيمة أديرا خليلة ابن الرب المختارة".

هكذا أعلن الملك بارع عن اسم خليلته لتهتز القاعة بعدها بالتصفيق والهتاف وتنهال التهاني والتبريكات على حورانة وأمِّها الكاهنة أديرا من كل الحاضرين.

كان وقع الخبر على آبيثار كالصاعقة القاصمة، لم يستوعب ما سمعته أذناه، خالَ الأمر وكأنَّه مُزحة ثقيلة أو كابوس مزعج، لكنه سمع جيِّدًا اسم زوجته حورانة واسم أمِّها أديرا أيضا، الأمر حقيقي تماما ولا هو بالخيال ولا بالكابوس، تبًّا أي عار هذا ألحقه به القدر وأي مصيبة نزلت عليه، لم يكد آبيثار يستفق من هول الصدمة حتى رأى منظرا لم يكن يخطر في باله أو يتصوره، منظر زاد من وقع الألم في نفسه بل ما يراه هو أبشع بكثير مما سمعه على لسان الملك إنها زوجته حورانة تتلقى التهاني وهي في قمة السرور والسعادة، وكأنها حصلت على منحة أو جائزة، ومعها والدتها أديرا وملامح الزهو والفخر بادية على محيّاهما.

وضع آبيثار رأسه بين يديه ونظر إلى الأرض وهو يتساءل مع نفسه كيف يمكن لزوجته أن تقبل بهذا؟ كيف توافق أن تكون لرجل غيره، تقاسمه السرير بل ترتمي في أحضانه وتهبه نفسها وجسدها؟ كيف تتحمَّل أن تكشف محاسنها ومفاتنها لرجل آخر غيره؟ أين الحب وأين المودة؟ أين العفة والإخلاص؟ كانت الأسئلة تتهاوى داخله مثل شظايا الجمر المتناثر على كومة تبن، احرقت قلبه وضاعفت من أوجاعه.

أدرك آبيثار توًّا أنَّ حورانة وإن كانت زوجته فهي تبقى ابنة هذا المجتمع الفاسد، فهي كغيرها نشأت على أخلاق قومها وتطبّعت بطباعهم وبرغم زواجه منها، فإنه لم يقم بواجبه كزوج حقيقي تجاهها، لم يبذل جهدا في فتح عينيها على ما غاب عنها، ولم يحاول أن يجعل حرارة الإيمان بالرب الواحد تلامس روحها أو تملأ قلبها، فهو لم يفكر أبدا في مخاطبة الفطرة السليمة بداخلها ولم يهتم بإعادة تشكيل شخصيتها وتقويم ما اعوّج منها، كان كل همه أن يملك جسدها ونسي أنه يجب أن يملك روحها أيضا، تذكر الآن كيف ترك نفسه للشيطان حتى جرفه تيَّار الخطيئة وشربت نفسه من بحر الرذيلة واستمرأت نفسه الكفر وهادنت الشرك، فلا يستطيع أن يلومها أو يعاتبها، بل يلوم نفسه ويغضب عليها.

أدرك آبيثار أنه آن الأوان ليدفع ثمن كل ما اقترفت يداه، وبات عليه أن يتجرع الألم ويتنفس الندم عقابا له على كل خطاياه، فقد نقض العهد، وشرب الخمر، ولعب القمار، واقترف الزنى واستحلّ الأعراض، ولا بد أن

يشرب الآن من نفس الكأس التي سقاها لغيره، لأنه كان يعلم أنه يُغضب الرب ويهوي في شباك الشيطان، فاستحق أن يطاله انتقامه.

كان آبيثار شاردا يكابد لواعجه غارقا في أفكاره، وصدره يختنق ألما وحسرة، لم يقطع شروده ذلك إلاّ صوت الوزير وهو يطلب من حورانة أن تلتحق بمنصة الشرف حتى تلقي التحية اللاّزمة على الملك ويُبارك الكهنة اجتماعهما. كان ذلك النداء كافيا ليُخرج نار غضب آبيثار المكتومة ويبعث غيرة البدوي القادم من الصحراء من رمادها، فانتفض من مكانه وأمسك بذراع زوجته ليمنعها من الحركة وهو يصيح في وجه الملك قائلا:

- لا لن يحدث هذا لن أسمح بهذا أبدا أيها الملك لن تأخذ زوجتي مني باسم البغاء المقدس، ألا تخشى عقاب الرب؟ ألا يكفيك أنها ابنتك من صلبك؟ كيف تقبلون هذا وكيف توافقين أيتها الكاهنة أن تُسلمي ابنتك لأبيها ألهذه الدّرجة تعفنت نفوسكم؟

خيّم الصمت على القاعة وساد الذهول وسط الحضور، كيف لآبيثار أن يعترض على حكم الإله بعل؟ بل كيف له أن يتجرأ على الملك ويتطاول عليه، وعلى الكاهنة العظيمة أيضا؟

لم يكن أحد في القاعة وأوَّلهم الملك يتوقع من آبيثار هذه الجرأة وهذا التصرف، وحدها الكاهنة أديرا التي لم تتفاجأ بما أَقدَم عليه صهرها، فهي أعلمهم بطباعه وكان ردّها جاهزا وحاضرا:

- لم تعد حورانة زوجتك أيها البدوي منذ اللحظة التي اختارتها يد الإله بعل لتكون حاملة القربان المقدس، لذلك عليك أن تلزم الصمت وتغادر سدوم حالا قبل أن يحل بك غضب الإله بعل .

آبيثار (مستنكرا): عن أي إلٰه تتحدثين وعن أي قربان؟ إنما تعبدون وثنا، لا سلطان له ولا قوة، وما طقوسكم تلك إلاّ من إملاء الشيطان الذي خدعكم وغيّب عقولكم حتى غزتكم الخطيئة وسكنت الرذيلة نفوسكم، وأنا أعلن لكم أني كافر بهذا الإله وأرفض حكمه ولن أسلِّمَكُم زوجتي وأمّ ولدي ولو في ذلك موتي.

تعالت صيحات الكهنة بعبارات السخط والاستهجان، فلا أحد كان يتصور أن تصل وقاحة وجرأة آبيثار لدرجة النّيل من الإله بعل .

- الكاهنة أديرا : كيف تجرؤ أيها البدوي البغيض أن تنتقص من قدر الهنا العظيم بعل وتزدريَ ديننا بعدما أكرمناك وقرّبناك وجعلناك شريفا وقد كنت فينا جلفا وضيعا؟

وقبل أن ينطق آبيثار تدخل الملك قائلا :

- الآن يا جلف الصحراء وصل بك الأمر للتطاول على سيد الآلهة وصاحب النِّعم، إلهنا العظيم بعل الذي جاء بك من فيافي البداوة ومنحك الجاه والسلطان، كذلك سيحل عليك غضبي وسأوردك النار والعذاب حتى ترى صنع الإله العظيم فيك وانتقامه منك.

أمر بارع حرّاسه باعتقال آبيثار فورا، فوثبوا عليه وجردوه من سيفه ووضعوا الأصفاد في يديه وقدميه، حاول عبثا أن يتخلص من قبضتهم ومقاومتهم، لكنَّ كل ذلك كان دون جدوى أمام كثرتهم. فأوثقوه وأمرهم الملك بأن يأخذوه لسجن المعبد ويكيلوا له العذاب مضاعفا ولا يريحوه إلاّ بالقدر الذي يبقيه حيًّا حتى الصباح، ليشهد إعدامه كل أهل سدوم. اقتادوه في قيوده أمام المدعوين، وأمام زوجته حورانة التي لم تحرك ساكنا، بل ولم تبدي اعتراضا ولا حتى جزعا، فيما ظل هو يصيح بأعلى صوته، يرغد ويزبد ويتوعدَّهم بانتقام الربّ منهم إن لم يرجعوا عنه وعن زوجته.

كانت صرخاته تخرج من أعماقه أنينا مريرا مُدويا، وهو يرى حورانة تتهاوى طائعة راضية بين ذراعي الملك، فيما كان الحراس يهوون به إلى سجن المعبد في انتظار مصيره المحتوم.

استحسن جميع الحاضرين اعتقال آبيثار وإرساله للسجن، عقابا له على تطاوله وإهانته للإله بعل وجرأته عليه وازدرائه لدين أهل سدوم وطقوسهم، بل ظهر جليا أن ما تفَوَّه به قد خلّف صدمة عميقة وجرحا في نفوسهم، ولا أحد منهم كان بوسعه أن يتحمل مجرّد التفكير في ما قاله وصرخ به في وجههم.

أمرت الكاهنة بمواصلة الاحتفال وتجاهل كل ما حصل، وامسكت بيد ابنتها حورانة، وسارت بها حتى اعتلت المنصة الشرفية حيث سيقوم الملك بتتويجها كشريكة له في الحب المقدس. كانت في غاية الحسن والجمال

وزادتها زينتها وتبرجها بهاء ونضارة حتى بدت كحورية من حوريات السماء، بدوره لم يُخفِ الملك بارع سعادته بهذا الاختيار فلمعت عيناه حينما رآها تسير إليه في حياء وكأنما كان يراها لأول مرة، استغرب كيف أنها أفلتت منه كل هذا الوقت وهي التي كانت قريبة منه، غالبه سرور داخلي لأنها لم تبدِ أي استياء ولم تجزع لاعتقال زوجها ووالد ابنها، وكأنما كانت تنتظر بدورها تلك اللّحظة لتتخلص منه.

لم يكن أحد من الحاضرين في القاعة يأبه لكون حورانة هي ابنة غير شرعية للملك، فذلك في عُرفهم يزيد من قيمة وقدسية هذا الارتباط ولأن الإله بعل نفسه متزوج من أخته عشتار فذلك ضروري وواجب حفاظا على سمو الدم الإلهي وقداسته.

أرخى الفجر بخيوطِه على ليل سدوم وأُسدل الستار على مراسم الاحتفال، وطويت معه ليلة حافلة بالأحداث والمفاجئات.

أمر الملك بارع وصيفات القصر بتحضير حورانة لقضاء أولى لياليها بين أحضانه، وأعطى تعليماته لتجهيز جناح خاص بها مع ما يلزم من وسائل الراحة والمتعة والترفيه.

في ذات الحين كان كدر لعومر يقطع بجيشه فيافي الصحراء، في ثقة وأنفة، كانت معنويات جنده عالية جدا لدرجة جعلتهم يرددون أهازيج الفخر التي تلهب حماستهم، لم يكن أحد منهم مباليا بمشقة الطريق التي كانوا

يقطعونها رجالا وركبانا حاملين دروعهم وسيوفهم ورماحهم، بل كانوا يسيرون في تنظيم محكم وترتيب دقيق.

أما بارع ملك سدوم فقد استسلم لشهوته المحرمة وهوى إلى قعر الرذيلة وغرق في بحر اللذة، مستمتعا بجسد حورانة تلك الشابة الحسناء التي تهاوت بين يديه وتركته عائما في بِركَة الافتتان.

بين كدر لعومر المتحمس وسط رجاله وبارع المنتشي بين أحضان خليلته، كان آبيثار يصْلى صنوفا من العذاب ويتجرع ألوانا من الألم، فقد قام جنود الملك بشد وثاقه إلى صليبٍ مسنون وضربوه على بطنه بالمرشة الحديدية وقاموا بكَيِّ كل أو صاله بالنار، حتى إذا خارت قواه وأغمي عليه من شدة الألم والصراخ، ربطوه إلى المخلعة وقاموا بتثبيت معصميه وكوعيه على بكاراتها وإدارة تلك البكرات باتجاه معاكس لشد جسده بشكل فظيع وممعن في القسوة والجهد حتى كادت عضلات كتفه أن تتمزق وأوصاله أن تنخلع.

ظل على تلك الحالة طيلة الليل ولم يتركوه حتى أو شك الفجر أن ينبلج، وما أبقوا عليه إلاّ ليشهد مصرعه عامة أهل سدوم وخاصتهم، حتى يكون عبرة لغيره ممن يفكر بالتمرد على سلطة المعبد أو ازدراء دينهم.

الفصل التاسع: الهدوء الذي يسبق العاصفة

شمس يوم جديد تطلع على سدوم ولا يزال جل أهلها نياما لشدة ما ألمَّ بهم من العياء فضلا عن إفراطهم في السكر والثمالة.
وحده آبيثار لم يغمض جفنه، تركوه مسجًّى على المخلعة، مصفَّد اليدين وقواه خائرة، كان تفكيره منشغلا بما آل إليه مصيره وهو يُحدِّث نفسه: تُرى هل ستكون هذه نهايتي؟ هل يكون عقاب الرب لي على هذا الشكل؟ تبًّا لقد كنت عازما على الرحيل لكن يبدو أن حظي العاثر كان أسرع مني، هذا ليس مُنصِفا لا ينبغي لابن الحكيم الذي عبد الرب الواحد وامتثل لوصاياه أن تكون نهايته على مقصلة، أو أن تعلق رأسه على سن حربة، وعلى أيادي عبدة الوثن، فجأة غمر الغرفة نور وضياء قوي، حاو ذل أن يقاومه وفتح عينيه فتراءت له صورة والدته العجوز راهين أمامه، رآها بوضوح رغم هالة الضوء التي كانت تحيط بها من كل جانب، أحسَّ بدفئها، بل وشمَّ ريحها أيضا، حاول أن يُكلّمها لكنه لم يستطع وكأن صوته سُرق منه، اطمئن قلبه برؤيتها، لكن لماذا هي عابسة واجمة لا تنطق بكلمة؟ كان يتوق لأن تمد له يدها الطاهرة أو تمسح بها على جبينه المتصفِّد عرقا، أو أن تنحني على رأسه وتقبل ناصيته بفمها الأدرد كما كانت تفعل معه في صباه، علّه يسترجع بعضا من قواه، نظر إلى عينيها الذابلتين والحزينتين،

لكنه سرعان ما أشاح بوجهه وأغمض عينيه، لم يستطع أن يتحمّل نظراتها الحادة والغاضبة، أدرك حينها بأنها لم تُسامحه على خروجه من أرض نازر ولم تغفر له نقض عهد أبيه، فكّر بأن يطلب منها العفو والصفح لكن تعاليه وغروره منعاه من ذلك. بل ولأنه لم يكن يشعر بالندم على ما فعله فهو لم يقتنع بعد بأن خروجه كان خطأ يستحق العقاب. فتح عينيه مُجدّدا لكنه لم يجدها، اختفت واختفى نورها معها، ترى أين ذهبت؟ هل كان ذلك مجرد حلم؟ لم يجهد نفسه في البحث عن إجابة لسؤاله بل نظر إلى نافذة السجن حيث تلوح الشمس المتصاعدة في الأفق، كان منظر الشروق مختلفا، كأنما يشهده لأوّل مرّة تذكر تلك الصلوات التي كان يقيمها مع أبيه في مثل هذا الوقت والتي انقطع عنها منذ أوّل يوم خرج فيه. تذكّر ابنه الصغير الذي لم يَكَد يُكمل عامه الأوّل، فاحترق قلبه عليه، وزاد كمده. كان يَوَدُّ لو مدّت الأقدار في عمره لبضعة أيام فقط فيُخرجه من سدوم ويستأمن عليه أخاه كباقي أبناءه.

كان آبيثار غارقا في فِكره الشارد من سدوم لأرض نازر لمعركة ثامار لسدوم مرة أخرى، أتعبته الأسئلة التي تناسلت في ذهنه، أجاب عن بعضها وأعرض عن جُلّها، رغم أنها أثقلت صدره وضاعفت من عذابه.

في هذه الأثناء كان كدر لعومر قد اجتاز بخميسه العرمرم برك القطران والكبريت في عمق السديم ووصل إلى سهل خصب كثير الماء والنخل فأمر جنده بإقامة معسكرهم ووضع أثقالهم وإراحة دوابهم التي تجشمت مشّاق

السفر، فيما انبرى هو وقادة الجيش لوضع اللمسات الأخيرة على خطة الحرب وتوقيت الانطلاق. فلم يعد يفصلهم عن ممالك غور الأردن الغنية وثرواتها سوى يوم وليلة قد تتغير بعدهما ملامح العالم وتنتقل مراكز المال والقوة من سدوم وعمورة إلى عيلام وشنعار وسائر مدن بابل.

استفاقت أديرا متأخرة من نومها، على غير عادتها وهي تعاني من صداع حاد ألمَّ برأسها فكّرت بطريقة للتخلص منه فلم تجد سوى أخذ حمام بخلاصة الزيوت المصرية والأعشاب الجبلية وتختمها بحصة تدليك، راقتها الفكرة وأمرت وصيفاتها بتحضير غرفة الاستحمام وإطلاق البخور والطيب فيها مع تحضير كل ما يلزم لحمام يُخلصها من تعبها ويعيد إليها نشاطها وتركيزها. همّت قبل ذلك بالتوجه إلى البلاط لتطمئن على ابنتها حورانة، غير أنها عرفت من الوصيفات أن الملك بارع لم يغادر مخدعه بعد، بل وأمر بألاّ يزعجهما أحد، فأدركت أن كل شيء يسير على ما يرام.

كانت متأكدة من أن ابنتها الحسناء والمدللة ستتمكن لا محالة من الاستيلاء على قلب الملك وعقله وستجعله يهيم بها حبا ويكتفي بها عن غيرها. تذكّرت آبيثار القابع في غيابات سجن المعبد، المسكين ستزهق روحه هذا اليوم. خطرت لها فكرة خاطفة فقامت مسرعة خرجت من غرفتها وأمرت الحارس بمرافقتها لرؤيته، في طريقهما إليه عرفت أنه قضى ليلته على المخلعة بعدما تلّقى ضربا مبرحا بواسطة المرشة الحديدية، اعتقدت لوهلة أنه يمكن أن يكون قد فارق الحياة، فنزلت الدرج

بخطوات متسارعة أمرت الحارس بفتح باب الزنزانة دخلت عليه فوجدته لا يزال مسجى على المخلعة ويداه مقيدتان، لكنه لا زال يتنفس، نظرت إليه وتفحصت جسده المخضب بالدماء، كان قويا مفتولا لم ينل العذاب من صلابته.

اقتربت منه ورمته بنظرات غريبة تنم عن التشفي المشوب ببعض الأسف ثم خاطبته قائلة:

- ما كان أغناك عن كل هذا أيها الملعون؟ لقد كنت فينا كريما عزيزا، هذا ما جنيت على نفسك وما قادك إليه جهلك وغرورك.

لم يقو على الرد عليها واكتفى برمقها بنظرات محتشمة، ثم استرسلت في كلامها متسائلة:

- هل تعرف أن بارع يخطط لصلبك تحت الشمس وتعذيبك حتى الموت ؟ هل تعلم أنه سيأمر بأن يشهد عذابك كل أهل سدوم؟

ثم قامت من أمامه وتوجهت نحو باب السجن، كأنها تهم بالمغادرة، التفتت إليه وابتسامة مريبة تعلو وجهها، وقالت: " لكن لا تقلق، لن أتركه يفعل، فأنا لا زلت أضِن بك على الموت ولا زالت في حاجة إلى قوّتك وجلدك أيها البدوي".

لم يفهم آبيثار المغزى من كلامها ولا حتى معنى ابتسامتها ونظراتها تلك، لكنه كان أضعف من أن يستفسرها، ولم ينبس ببنت شفة.

غادرت أديرا سجن المعبد لكنها أمرت الحارس بفك وثاقه وإراحته، ثم دعت له بطعام وماء وبعض البلسم والدواء لتضميد جراحه مع الإبقاء عليه في السجن وانتظار أو امرها.

عادت أديرا إلى جناحها الفخم، ولجت إلى غرفتها، خلعت ملابسها، والتحفت بملحفة حريرية ثم توجهت نحو غرفة الاستحمام، أخذت نفسا عميقا من أبخرة العود والصندل المنبعثة بكثافة داخل الحمام، ثم تحررت من ملحفتها وألقت بجسدها وسط حوض الاستحمام الرخامي المفعم بالمياه الفاترة والمخلوطة بمنقوع الميرامية وأعشاب البحر المنعشة، والتي أضيف إليها خليط معجون من أوراق زهر البيلسان والورد والبنفسج والياسمين.

غاصت أديرا وسط الحوض وأرخت بجسمها المكتنز داخله وأغمضت عينيها مطلقة العنان لخيالها.

أنزل الحراس آبيثار من على المخلعة وقاموا بمداواة جراحه وتطبيبه، كما حرصوا على إطعامه وسقايته، ثم تركوه يرتاح ويلتقط أنفاسه، فيما عاد هو لحديث نفسه وذكرياته، كان يستحضر صورة زوجتيه وأولاده، ويدافع حنينه إلى أرض نازر .

أما هناك بعيدا وسط الصحراء في أرض نازر المباركة فقد كان السلام يعم المكان، جو من الطمأنينة يسود ويسكن نفوس كل من يعمر تلك الأرض، كانت راهين العجوز لا تبارح الدار فقد ذهب بصرها، وخارت قواها، لكنها لازالت تحتفظ بذكرياتها ووصايا زوجها، ولم تفتأ تذكر ابنها آبيثار الذي

سرقته منها مدنية سدوم الزائفة، كان لها في أحفادها منه بعض العزاء، تواسيهم وتحدب عليهم، وتتوسم تقاسيمه في وجوههم، وتشم ريحه في ثيابهم، أما أديفا وعادينا فقد استسلمتا لواقعهما وأضحت حياتهما معلقة بأمل عودته، تترقبانه مع إشراقة كل صباح وتنامان على ذكراه آخر كل مساء.

وحده آرميا كان راضيا بما آل إليه حاله، مطمئنا لما رسمته الأقدار، فقد عمّر الأرض وأكرم ضيوفه، وداوى جراح الثكلى وكفل اليتامى وستر الأيامى وأمّن الخائفين وسد جوع الجائعين، ولما كان جزاء البر عند الرب هو بر أكبر منه، فقد أكرمه من فضله وأرغد عيشه وأفاض عليه وعلى آله من الخير وفيره وعمِيمِه، وملأ مخازنه بالقمح والحنطة وأسال له أنهار اللبن والعسل في ضيعته، وتضاعفت قطعان الماشية وتوسعت جنته وسط الصحراء وتفجرت فيها عيون المياه جارية. فكان عبدا شكورا متبتلا للرب الواحد يحفظ حدوده ويقيم له الصلوات، حتى صار بين أهله وضيوفه هو الحبر الأعظم صاحب الحكمة ومنبع النور والرحمة. ولما كان يفد عليه من الفارين بدينهم وأنفسهم رجال ونساء من سائر الأنحاء فقد حملوا إليه خبر وقوع كل المدن والممالك الواقعة على ضفاف الوادي في يد عظيم بابل وتواترت إليه في ذلك حكايات وروايات تروي وتقص صنيع كدر لعومر بكل الممالك التي كانت في طريقه، وتنكيله بقادتها وملوكها وما أوقعه

فيها من قتل رجالهم وسبي نسائهم، حتى تجاوز حصون ثامار المنيعة وقطع الصحراء لا يوقفه شيء.

عرف آرميا بحكمته أن كدر لعومر ما أراد بخروجه ذلك إلاّ أرض غور الأردن يصل إليها فيُغير على ممالكها الغنية ويُخضعها عنوة لسلطانه، فيذل أهلها ويستولي على بساتينهم ونخيلهم، ويغنم أموالهم ويسلبهم تجارتهم ويقاسمهم ثراءهم وازدهارهم. تساءل في سره هل سيتوقف كدر لعومر عند حدود سدوم وأخواتها أم سيفكر بأن يقطع الوادي ويُغير عليه وعلى أرضه وينهب خيراتها؟ فإن كان ذلك فكيف سيمنعه ولا طاقة له به ؟

كانت تلك التساؤلات مبعث خوف آرميا ولم يجد لها جوابا، وأدخلته في نفسه بعض الحيرة ولم تترك له بدًّا من اللجوء إلى حكمة أمه العجوز راهين، توجه صوبها وأخبرها بالأمر فطمأنته أن الأرض التي تُعلي كلمة الرب الواحد وتحفظ وصاياه وتقيم حكمه وسلطانه لا بد وأن يحفظها العلي ويرعاها، فلا يصل إليها أحد ولا ينال منها الأعداء مهما عظمت قوتهم وتجبرت سطوتهم.

لم تكن إجابات راهين على قدر كبير من الوضوح ، لكنها كانت شافية لقلبه وأزاحت عن صدره هم ثقيل وفكر مضنٍ.

استراح آرميا من مخاوفه ولهج لسانه بتراتيل الشكر والتسبيح للعلي القدير ودعا الله أن يبعد عنه وعن أرض أبيه طمع الطامعين وأن يرد عنه كل من يريد به وبأهله شرا.لم يلبث آرميا أن تخلص من مخاوفه واطمأن قلبه،

فإيمانه بالرب الواحد كان أكبر بكثير من أن تنال منه الوساوس والهواجس، لكن هي نفسها تلك الهواجس لم تبرح صدره إلاّ لتستقر في صدر أمه راهين، فقد علمت أن ابنها ما خرج من بين ظهرانهم إلاّ قاصدا أرض سدوم، وعلمت أن رحى الحرب الدائرة هناك لن تفلته وقد تهرسه بين فكّيها، فيموت وهو على خطيئته وقبل أن يكفر عن ذنوبه ويعلن توبته، ارتعدت فرائصها لمجرد الفكرة واضطرب قلبها وتحرق كبدها عليه فانطلق لسانها يلهج بالصلاة للرب والدعاء له عسى أن ينجيه من كربه العظيم ويتجاوز عما اقترفته يداه من آثام.بدوره آبيثار كان غارقا في تفكيره وتساؤلاته التي لا تنتهي إلاّ لتلد أخرى، لكنه وقف أخيرا أمام الحقيقة التي حاول التهرب منها طويلا، لقد أخطأ فعلا بالخروج من أرضه واقتنع أكثر بفظاعة جرمه عندما أنقض وعد أبيه وانغمس في فسق وفجور أهل سدوم، كانت هذه الحقيقة التي أصبحت ناصعة الوضوح أمامه ولم يعد بوسعه التنكر لها، لكن الثّمن كان باهضا، بعدما خسر ماله ومكانته بين أهله وهاهو الآن سجينا ذليلا بيد أعداءه.

لم يكن آبيثار يفكر بنفسه فقط، فولده ياكين الحديث العهد بالدنيا كان يشغل باله أكثر من أي شيء آخر، فهل تستنقذه الأقدار من مصير لم يختره أبدا؟ أم أنها ستجعله يدفع ثمن خطيئة والده؟

بينما كان آبيثار سجين عذاباته وهمومه وأفكاره، كانت الكاهنة أديرا في الجانب الأعلى من جناحها بالمعبد، تستمتع بجلسة تدليك على نسمات

الطيب وأيادي وصيفاتها تسرح بنعومة في كامل جسدها الأسيل، كانت مستلقية على سريرها ورائحة العود المحترق في مبخرتها الذهبية تتصاعد وتملأ الغرفة وتزيد في استرخائها، لم تكن أبدا أحسن حالا من اليوم فابنتها أضحت سلطانة القصر الجديدة، وتخلصت المدينة من كابوس البابليين الذي جثم عليهم كسحابة سوداء طيلة الأيام الماضية، تذكرت زوجها القائد رابيم وتمنت لوكان بجانبها في هذه اللحظات فحمام الأعشاب وجلسة التدليك قد أشعلا رغبتها وأججا اشتهاءها لأحضان رجل تنساب بين يديه ليداعبها بدلال ونشوة، فإنها لم تستطع صبرا على حرمانها.

انتهت المدلكات من عملهن، نهضت أديرا ووقفت أمام المرآة تتفحص جسدها الناعم المتناسق، ثم ارتدت قميصا شفافا بنفسجي اللون مصنوع من الحرير، كان القميص يكشف كل ما تحته ولا يصل إلى سيقانها، ثم تطيبت بأجود عطورها، وأسدلت شعرها ووضعت حليها. تزينت كعروس تستعد لليلتها، ثم طلبت من إحدى وصيفاتها أن تأتيها بشراب التوت البري فهو مشروبها المفضل، سرعان ما حملته لها في كأس البلور، أخذته منها واستلقت على سريرها ذي الصواري المذهبة والفراش المكسو بالأصواف المنعمة الوثيرة، والنمارق المريحة. وماهي إلاّ لحظات قليلة وبينما كانت أديرا تستريح في جناحها الفخم حتى أخبرتها وصيفتها بقدوم ابنتها حورانة، فقامت إليها واستقبلتها بفرح وحبور كبيرين، تعانقتا بشدة، كان وجه حورانة متوردا وهي في كامل زينتها، وزادها التاج والجواهر الملكية

جمالا وبهاء، سألتها أمها كيف كانت ليلتها الأولى بين أحضان الملك بارع فأجابتها بخجل أن كل شيء كان على ما يرام وأن الملك دلّلها كثيرا، فتساءلت الكاهنة عن سبب زيارتها في هذا الوقت ولماذا قطعت خلوتها، فأجابتها أنها استغلت فرصة خروج الملك لبعض شؤون الحكم من أجل القدوم إليها ورؤيتها فقط، ثم أمرت أديرا خدمها بتحضير الطعام لكن حورانة أبدت عدم رغبتها في الأكل وأن لا شهية لديها، كانت متوترة وكأنها تخفي شيئا، انتبهت لها أديرا وعرفت أن قدوم ابنتها لم يكن بهدف الاطمئنان عليها فقط، ولكن توترها يخفي سبب آخر ، أمسكت يديها بحنان وأجلستها بجانبها وسألتها :

ما بك عزيتي ما الذي يشغل بالك؟

حورانة : لا شيء أمي أنا بخير

"أديرا": لكن حيرتك لا تقول ذلك هيا تكلّمي

حورانة : أمي هل قتلتم آبيثار؟

"أديرا": ولماذا تسألين عنه؟ لم يعد زوجك منذ أن...

قاطعتها حورانة قائلة: لا أسأل عنه لأنه زوجي أعرف أنه كان اختيارا خاطئا من البداية، لكن..

أديرا (مقاطعة): لكن ماذا؟ مازال يشغل تفكيرك؟ لا تنسي أنه أساء لنا وأهان الإله بعل العظيم وأنه يستحق العقاب الذي أنزله به الملك بارع،

سكتت حورانة وأومأت برأسها موافقة على ما قالته أمها ثم أطرقت صامتة للحظات، قبل أن تباغتها أديرا بالسؤال:

-كيف وجدت الملك بارع ؟

فهمت حورانة ما ترمي إليه والدتها، فتوردت وجنتيها خجلا وقالت بصوت خافت : كان لطيفا جدا معي دلّلني كثيرا.

لم يكن ردها شافيا لوالدتها فكررت سؤالها بطريقة أخرى أكثر جرأة: - أتمنى أن يكون قد نجح في أن يجعلك تنسين ذلك البدوي؟

فأجابتها ربما كان آبيثار بدويا وفظ الطباع، لكنه كان يحسن ما لا يُحسنه غيره. كان جواب حورانة المباشر والجريء كافيا ليجعل والدتها تغتبط حتى لمعت عينها ورسمت على وجهها ابتسامة حاولت إخفاءها، قبل أن تغير حورانة من مجرى النقاش بالقول: لقد مضى وقت على قدومي ولم تأمري لي بشراب فاكهة منعش بعد. ضحكت أديرا بصوت عال وأمرت وصيفتها بإحضار شراب الفاكهة وبعض النبيذ لها ولابنتها، قبل أن يكملا حديثهما عن القصر وشؤون الحكم.

الفصل العاشر: ليلة الحب والحرب والموت

لم يعد يفصل كدر لعومر وجيشه عن سدوم سوى أميال قليلة، فأمر جنود المقدمة أن يلبسوا ثياب المقاتلين السدوميين التي سبق وأن سلبوها من قوات رابيم كان هدفه من ذلك أن يُموِّه، رَصَد الطريق وحُرَّاس البوابات الذين قد ينتبهوا لقدومهم من بعيد، فيعتقدون بذلك أن قوات القائد رابيم هي العائدة من ثامار فلا يغلقون الأبواب ولا يحتاطون لهم ويتمكن بالتالي من الحفاظ على عامل الفجائية والمباغتة والذي سيمكنه لا محالة من حسم النصر في وقت وجيز وبأقل الخسائر .

كان آبيثار في هذه الأثناء يستريح من عناء ما قاساه من تعذيب وتنكيل، وتمكن أخيرا من الخلود للنوم والتخلص من بحر الأسئلة والحيرة الذي كان يغرق فيه، ومالت الشمس إلى المغيب، والمدينة تستعد لاستقبال ليلة يفترض فيها أن تكون أكثر هدوء من سابقتها.

من جهته كان الملك بارع بدوره يحضر لغزوة جديدة، لكنها بالتأكيد غزوة من نوع آخر، فقد كان يستعد لقضاء ليلة مخملية أخرى بين أحضان خليلته الحسناء حورانة، وليتفرغ لإشباع رغباته المشتعلة أوكل مهمة تسيير أمور الدولة لوزيره الأعظم، هذا الأخير كان غارقا هو الآخر في مجونه بين غلمانه وقيانه، واكتفى بتوجيه قائد الحرس لتأمين البلاط والهيكل

ومخازن الحنطة والقمح، وتشديد الحراسة عليها خوفا من عبث اللصوص، أما البوابات الخارجية وتخوم المدينة فلم يكن أحد يبالي بها ولا يفكر في تأمينها خصوصا بعدما اطمأن الجميع لزوال خطر البابليين معتقدين أنهم نجوا من حملة كدر لعومر ولوقت طويل.

كانت أديرا تقف في شرفتها تناجي وحدتها والنسمات الليلية تداعب خصلات شعرها لتعانق خدودها، الهدوء يخيم على المكان ولا يقطعه سوى صوت النار التي تقدح في المشاعل وأنين طائر الليل يتردد صداه في الخلاء، لم تعد تقوى على هذا الحرمان الذي يحرق جسدها، غالبت شهوتها فغلبتها، وانتفضت أوصالها رعشة وشغفا، تذكرت زوجها الغائب منذ زمن وغبِطت ابنتها المنتشية بين أحضان بارع ، تذكرت أيضا، حديثهما عن آبيثار وعنفوانه وجهده الذي لا يفتر، أغلقت أبواب شرفتها ثم دلفت مسرعة إلى غرفتها، أسندت رأسها على أحد أعمدة سريرها ومرّرت يديها على فراشها الحريري، كانت تحدث نفسها وتمني النفس بقضاء ليلة أنس صاخبة، تعوض بها شظف حرمانها الممتد لأسابيع طويلة، علِقت بذاكرتها صورة آبيثار وجسده الذي يفيض عنفوانا ورجولة واستعرضت في مخيلتها عضلاته المفتولة كجبل منحوت على هيئة بشر.

اتجهت صوب مرآتها الفضية نظرت إلى نفسها، وهي تتحسس جسدها، وتملس بيديها على صدرها، ثم جلست إلى منضدتها تُعدِّل زينتها، كحّلت عينيها وصففت شعرها ونثرت بعض الحمرة على خديها المتوردين أصلا

وبلّلت شفتيها حتى لمع لونهما الزهري مثل كرزتين، تطيبت ووضعت بعض حليّها ثم أرسلت وصيفتها في طلب حارس المعبد ليأتيها على عجل بـآبيثار.

أطلقت زفرة حارقة خرجت من صدرها حاملة منه حمما ملتهبة ثم تمددت على سريرها تداعب خصلات شعرها وتتنسم بمروحتها، عيناها زائغتان وفكرها شارد فيما تخطط له.رجعت الوصيفة إليها ومعها حارس المعبد وآبيثار أخبرتها أنهما واقفين بالخارج ينتظران أوامرها، فجأة أحست أديرا بقشعريرة تعتريها وانتفض جسدها المحترق شهوة، ثم ما فتئت أن تماسكت واستعادت حزمها ووقارها. طلبت من خادمتها أن تأمر الحارس بالانصراف وأن تقوم هي بتحضير حمام ساخن لآبيثار مع ما يلزمه من ثياب جديدة وبعض الشراب المنعش.

خرجت الوصيفة، وطلبت من الحارس أن ينصرف ويترك آبيثار معها، هذا الأخير لم يكن يفهم ما يدور حوله لكنه كان مستسلما مطيعا لا ينبس ببنت شفة، أحس براحة عميقة وسكينة تختلج صدره، مَسَحَ مِعصميه من أثر القيد والحديد الذي أدماهما ونظر إلى الوصيفة وكأنه يتساءل ماذا بعد؟ أمرته بانتظارها في الردهة، غابت قليلا ثم عاودت إليه تدعوه للاستحمام حتى يتخلص من رهقه، وينفض عنه أدران السجن. فرِح آبيثار كثيرا بهذه الدعوة وطلب من الوصيفة أن تجد له ثوبا آخر بديلا عن هذا الذي أصبح مجرد أسمال ممزقة عليه، أخبرته أنها وضعت له ثوبا جديدا على المنضدة مع

بعض الطيب، ثم تركته يستحم وذهبت لتخبر سيدتها أن كل شيء يجري كما أرادت.

أمرت أديرا وصيفتها أن تغادر الجناح لكن قبل ذلك عليها أن تخبر آبيثار أنها تنتظره في غرفتها وعليه أن يلتحق بها بمجرد ما أن ينهي حمامه، كما أمرتها أيضا أن تحرص كل الحرص ألاَّ يُزعجها أحد وأن تشدد على الحراس بألا يسمحوا لأي كان بالاقتراب من جناحها. امتثلت الوصيفة لأوامر سيدتها، ثم أو صدت الأبواب وغادرت.

انتهى آبيثار من استحمامه، لبس ثوبه الجديد وتطيّب ثم توجه نحو غرفة أديرا، وهو لا يعلم ما الذي تريده منه ولا ما سيكون مصيره، ولم يكلف نفسه عناء تخمين ذلك فقد تعب من التفكير، وكل ما كان يُطمئِنه أن حاله الليلة أحسن بكثير من حاله بالأمس. طرق الباب مُستأذنا فأذِنت له، دخل عليها فوجدها ممددة على سريرها، وهواء مروحتها اليدوية يداعب خصلات شعرها الأشقر، تفحصها بنظرات ثاقبة ومتفرسة كأنما يراها لأول مرة، مسح جسدها بعينيه من رأسها لأخمص قدميها ثم بلع ريقه، جذبته زينتها الباذخة وعينيها الواسعتين كجوهرتين كحيلتين مرسومتين بإتقان، ووجنتيها المتوردتين كتفاح أحمر شهي وشفتين زهريتين، جِيدُها المنتصب عاليا بزهو ومنظر نهديها البارزين من تحت خمارهما، جسدها كلن مرتسما منحوتا تحت ثوبها الشفاف وقطعة ذهبية لامعة تستقر فوق سرة بطنها المشدود بحزام يبرز أردافها، رفعت ركبتها اليمنى فانسدل ثوبها عن فخذها

الأبيض الذي بدى مثل سبيكة فضة تعكس ضوء القمر. أزاحت الإزار الحريري الزاهي الألوان الذي كان يستر ساقيها ونزلت من على سريرها فسمع رنة خلخالها الذهبي الذي يُزَيِّن قدميها كأنما كانت تعزف ولا تمشي، توجهت نحوه وربّتت على كتفه واستدارت حوله وهي تقول:

– يبدو أنك استعدت عافيتك سريعا؟ فنشأة الصحراء جعلتك صلبا شديد الجلد، وقوي العزيمة؟

لم يجبها آبيثار وظل صامتا واجما مطأطأ الرأس ينظر للأرض، وما لبث أن شعر بيدها تسرح تحت قميصه وتمسح ظهره، انتابته قشعريرة وقف لها شعر جسده، تسارعت نبضات قلبه، حتى خُيِّل إليه أنها تسمعها.

أديرا : أتمنى أن تكون الليلة التي قضيتها على المخلعة قد جعلتك تعود لرشدك وتتوب عن هرطقتك؟

آبيثار (مجيبا) : لا شك أني كنت مخطئا من البداية فما كان عليّ أن أخرج من الصحراء وأقدم إلى هنا، وكل ما أرجوه الآن أن أتمكن من مغادرة سدوم فورا، والعودة من حيث أتيت ومعي ابني ياكين، وسأكون ممتنا لك أديرا أذا سمحت لي بذلك وساعدتني.

أديرا: أساعدك؟ ولِمَ أفعل؟ وفي مقابل ماذا؟ أنت تعرف أن الملك بارع حكم عليك بالموت؟

آبيثار : وما المقابل الذي أملكه حتى أقدمه لك؟

نظرت إليه بشهوة وقالت له ويدها تستبيح صدره الخشن، من له مثل هذا الجسد الصارخ وهذه العضلات المفتولة والساعدين القويين بالتأكيد فله ما يقدمه لامرأة جميلة وظمأى مثلي.

اضطرب آبيثار وجف حلقه، فقد فهم قصدها وعرف أنها تراوده عن نفسه، وتمتم قائلا: - ولكن ... ولكن .....

قاطعته متسائلة: - ما بك لماذا تلعثمت؟

أجابها: ما تطلبه الكاهنة العظيم لا يصح ولا يليق فأنا زوج ابنتك.

أديرا: تبًّا لك، كيف تجرؤ على قول هذا؟ لم تعد زوج ابنتي منذ اللحظة التي اختارها القدر لتكون زوجة الملك، أنصحك أن تنساها وللأبد، إذا كنت تريد أن تحتفظ برأسك فوق كتفيك.

سكتت لبرهة ثم نظرت إليه واستطردت قائلة: أعدك أن تكون خارج أسوار سدوم قبل طلوع الشمس، أما ابنك فالأجدر أن تنساه، لأنه أيضا ابن الأميرة حورانة وهو سدومي على كل حال ولن أدعك تأخذه من أمه لتلقي به في فيافي الصحراء.

كانت نبرتها حادة وملامحها صارمة قبل أن تلطف من لهجتها وتستعيد ابتسامتها الإغرائية، صبَّت بيديها كأسا من النبيذ وقدمتها له ثم عادت واستلقت على سريرها متعمدة إبراز مفاتنها. ظل آبيثار صامتا، مطرقا يفكر في عرضها، شرب كأس النبيذ دفعة واحدة، وصب لنفسه كأسا أخرى بعدما أومأت إليه بذلك، نظر إليها لم يفكر في رفض طلبها، وليس

بإمكانه ثنيها عمّا عزمت عليه. كان مدركا في قرارة نفسه أنه لا فائدة ترجى من ذلك، فهو الآن في حكم الأسير بين يديها، هي تأمر وهو يطيع، وبالرغم من يقينه أنه يُقدِم على انتهاك الحرمات والدم، إلاّ أنه لم يكن يفكر سوى في خلاصه وخلاص إبنه، لذلك قرر أن ينصاع لها ويرضخ لرغبتها، اقترب من سريرها وسألها: حسنا، لكن كيف ستساعدينني للخروج من المدينة وتجاوز الحراسة؟ فأطلقت ضحكة ماجنة وجذبته إليها بقوة قائلة تعال إلي أيها البدوي، ولا تفكر بشيء، فأنا أحترق شوقا.

استسلم لها وأطلقا العنان لحديث الجسد يقول كلمته بينهما.

انتصف الليل، وعم السكون كل أرجاء المدينة، لكن وغير بعيد، هناك في الواحات القريبة كان كدر لعومر يأمر قواته بالتحرك، أراد أن يصل البوابات مع آخر الليل حيث يكون العياء والنعاس قد تمكنا من الحراس ويأمن عيون المراقبة، ظل يشحذ همة قواته، يحفزهم ويمنيهم بقرب النصر ووفرة الغنائم .

أما أرض نازر المباركة فقد كانت على هدوئها تستعد لحدث مؤلم وعصيب، فقد استبد الوهن بالأم راهين وعلمت أن ورقة عمرها الذابلة قد دنت للسقوط، كانت مستلقية على فراشها وكل أبنائها وأحفادها متحلقين حولها في مشهد متكرر شبيه بيوم وفاة زوجها، لكن اليوم لا يشبه الأمس إلا في الحزن وغياب ابنها البكر آبيثار الذي زاد من وجعها وفتّت كبدها، لكن برغم ذلك فإن دعواتها وصلواتها لم تفتر من أجله، كانت عيناها دامعتان ولكن وجهها مشرق كأنه بدر مكتمل، لم تكن آذانها تلتقط أصوات بناتها وأحفادها المنتحبين من حولها، كأنها مسافرة في عالم غير عالمهم، وحده آرميا كان متجلدا يحبس عبراته ويتلو صلواته وهو ممسك بيدها ويشد عليها بقوة وحنان، لكنه توقف فجأة عن التلاوة بعدما أحس ببرودة كالصقيع تغزو يدها وتتصاعد في كامل جسدها النحيل، اختنقت أنفاسها فيما يشبه الغرغرة ثم توقف نبضها وأسلمت روحها للرب في مشهد مؤلم وكئيب، قام ابنها بإغماض جفنيها وإسدال الإزار عليها في انتظار التجهيز لجنازتها.

انقضى من الليل معظمه ولاتزال أديرا غارقة في إشباع نزوات جسدها المتَّوقد رغبة وشهوة مع آبيثار ، فيما أصبح الخطر قاب قوسين أو أدنى من سدوم، الكل في غفلة، الحراس متراخون والقادة غائبون تماما عن مواقعهم، أما الحاكم ووزيره وباقي حاشيته فجميعهم كانوا منهمكين في ملذاتهم وشهواتهم، دون أن يدركوا أنه حان الوقت ليدفعوا ثمن ما اقترفوه من فساد وما أشاعوه بين الناس والأمم من صنوف الفاحشة وأنواع الرذائل.

باتت قوات بابل على مسافة قريبة جدا من مملكة سدوم يتقدمها كدر لعومر بنفسه، كان يعرف أنه يتوجب عليه أن يدبر للحرب مع جيشين كبيرين هما جيشا سدوم وعمورة ومعهما جيوش الممالك الثلاث الأخرى، ورأى أن إدارة المعارك على عدة جبهات تقتضي منه القيام بتقسيم جيشه إلى ثلاث فرق كبيرة العدد والعدة، وأن يكون هو على رأس الفرقة الأولى ومهمتها التوجه رأسا إلى مملكة سدوم ومباغتة أهلها بالغارة والإجهاز على كل جندها وقتل ملكها بارع، فيما قام بتولية أحد قادة جيشه ويقال له بلشيم وهو من المقاتلين الشداد الأشاوس، وأمره بقيادة الفرقة الثانية بعدما أوكل إليه مهمة مداهمة حصون مملكة عمورة ودكها على رؤوس سكانها، فقد كانت هاتين المملكتين تشكلان القوتين العظيمتين والرئيسيتين بين جميع ممالك الوادي، وسقوطهما سيُفضي بالضرورة إلى استسلام بقية الممالك ودون الحاجة إلى قتال، أما الفرقة الثالثة فكانت

مهمتها هي حماية ظهر الفرقتين المهاجمتين والبقاء على نفس المسافة منهما لمد العون والمساعدة لهما على مقتضى الحال، وكذلك قطع جميع الطرق والروابط بينها وبين باقي الممالك.

وقف كدر لعومر وقواته أخيرا عند أطراف سدوم، كان المراقبون قد أمضوا ليلتهم في السكر والثمالة، فلم يفطنوا لقدومهم. باغتهم على حين غرة، وقتل كل الحراس والمراقبين وأحكم قبضته على البوابة الكبرى، فأغلقها ووزع بعض رجاله على المصاعد المؤدية إلى أبراج المراقبة للحيلولة دون وصول أي متسلل وحتى لا يتمكن أحد من تنبيه الأهالي بدق أجراس الإنذار العملاقة المثبتة في أعلاها أو إشعال النار في مشاعلها الضخمة، ثم توجه بفيلقه إلى قلب المدينة.

في هذه الأثناء انتهت أديرا من سهرتها المخملية الماجنة مع آبيثار ، وأمرت حارس جناحها بمرافقته للإسطبل وتسليمه فرسا ولباسا من ألبسة حراس المعبد ليتنكر فيه ويتمكن من عبور البوابات، أما هي فقد استسلمت للنوم بعدما نال منها التعب وارتخى جسدها.

خرج آبيثار من المعبد ممتطيا فرسه ومتنكرا في هيئة الحارس، كان يفكر بطريقة ما لتخليص ابنه، فلم يكن ليغادر سدوم دون اصطحابه معه إلى أرض نازر، مرّ بسور قصر الملك وألقى عليه نظرة متفحِّصة، خطرت له فكرة التسلل إليه ومن ثم الدخول إلى جناح حورانة واختطاف ابنه، فلم يتردد في تنفيذها فشدّ لجام فرسه وتوجه نحو البوابة الخلفية المخصصة

للجنود والحرس، استطاع بفضل تنكره أن يتجاوز المراقبة دون أن يعترضه أحد، وماهي إلا لحظات قليلة حتى كان في قلب البلاط، بل ووصل حتى جناح الأميرة حورانة، استوقفه الحارس ليسأله عن سبب قدومه في هذا الوقت المبكر، لكنه باغته بضربة خنجر أردته قتيلا على الفور، ثم سحبه إلى أحد الأقبية ليداري جثته، عاد بعد ذلك إلى الجناح، تساءل مع نفسه ترى أيٌّ من هذه الغرف يمكن أن يتواجد بها ابنه، سمع خطوات أحدهم قادما من الردهة، سارع بالاختباء خلف أحد التماثيل، ليتبين من القادم، لم تكن تلك سوى إحدى الوصيفات آتية من ممر الخدم، انتظر حتى دخلت إلى غرفتها فتبعها متسللا ودخل وراءها، وقبل أن تصرخ من رؤيته كتم أنفاسها بقوة حتى كادت تختنق، ثم همس في أذنها أنه لا يريد بها شرًّا ولن يقتلها إن هي دلّته على مكان تواجد ابن الأميرة حورانة، أو مأت له برأسها فأرخى قبضته، نظرت إليه بعين شاخصة وفرائصها ترتعد خوفا، فوضع الخنجر على رقبتها وطلب منها أن تتكلم وإلاّ قطع وريدها، قالت له بصوت مرتعش ومختنق بالدموع أن الصغير يوجد بغرفة مربيته بجوار غرفة الأميرة، في آخر الردهة، فسألها عن الحراسة فأخبرته أن هناك حارسا يقف بالباب، وما إن أنهت كلامها حتى وجّه لها ضربة على مؤخرة رأسها بعقب خنجره، أفقدتها الوعي، تركها وتوجه لآخر الردهة، رأى الحارس من بعيد، ألقى عليه التحية اقترب منه وقبل أن يبادره بكلمة، صرعه بضربة قاصمة لم يترك له معها أي حظ، ثم دخل الغرفة كانت المربية تغط في نوم عميق،

وبجانبها سرير بأعمدة ذهبية ألقى عليه نظرة فوجد فيه إبنه الصغير نائما، لم ينتظر كثيرا حمله بين ذراعيه وخرج عائدا من حيث أتى، كانت الممرات خالية تماما الأمر الذي مكّنه من أن ينسل هاربا بسرعة، لكنه سمع فجأة أصواتا غريبة بالخارج وجلبة غير اعتيادية في هذا الوقت المبكر، لم يعرف ما الذي كان يحصل وقتها، رأى الغبار يتطاير في السماء وسمع وقع الخيول، وصل إلى باب البلاط ألقى نظرة خاطفة فرأى قوات بابل وعلى رأسها الملك كدر لعومر قادما من البوابة، أدرك بسرعة أن الأمر خطير جدا وأنهم وقعوا ضحية مكيدة لم يستوعب تفاصيلها بعد ولم يفكر في فك طلاسمها، فالحقيقة الوحيدة الجلية أمامه في هذا الوقت العصيب هي أن كدر لعومر بات هنا الآن .

أحس آبيثار أنه وقع في مأزق كبير، فبعدما كان مطاردا من الملك بارع وحراسه، أصبح الآن مطلوبا لـكدر لعومر أيضا، فهذا الأخير لا بد وأنه يذكره جيدا، ولن ينسى له صنيعه بهم في معركة ثامار بعدما قتل عددا كبيرا من الجنود البابليين بل وأثخن فيهم أيضا، ولن يصدق أبدا روايته حول خروجه مكرها على القتال مع جيش سدوم ولا ما وقع له مع ملكها الذي سجنه بعدما استحل زوجته. نظر آبيثار لولده ياكين الذي استفاق من نومه وبدأ صراخه يتعالى، ضمَّه بحدب وحنو إلى صدره، ثم تراجع مسرعا إلى داخل البلاط، تذكر أن هنالك بابا خفيا وراء أحد التماثيل والذي يؤدي مباشرة إلى قبو تحت الأرض، توجه نحوه مسرعا فتحه ودخل

إلى الردهة ثم أحكم إغلاقه، سار في دهليز ضيق ومظلم وصراخ ابنه يملأ المكان حتى وصل إلى منعرج أشبه بالباحة كان أكثر اتساعا وخيوط الضوء المتسللة من منافذ التهوية تكسر الظلام، فمكث هناك يترقب ويفكر كيف سيتصرف، وكيف السبيل إلى للنجاة بنفسه وبولده.

الفصل الحادي عشر: عمورة وسدوم والقدر المحتوم

استفاق أهل سدوم على كابوس دموي لم يكن الأشد منهم تشاؤما بمقدوره أن يتخيله، جنود بابل منتشرين في كل مكان يسفكون الدماء ويقتلون كل من تقع عليه أعينهم ولا من يقاومهم، لا جيش ولا حرس ولا قادة، الكل ألقى سلاحه أمامهم واستأسر.

سقط المعبد وقتلوا كل الكهنة، أما أديرا فأخذوها سبية ذليلة، وسيطروا على مخازن السلاح وأحكموا قبضتهم عليها، ثم اقتحموا بلاط الملك، قتلوا الوزير الأعظم وكل القادة والسادة والأعيان، وجاء الدور على الملك بارع ليلقى حتفه هو أيضا وأمام أعين خليلته حورانة، انتزعوها من بين أحضانه وذبحوه، سفكوا دمه قبل أن يتحرك من سريره.

أخيرا واجهت سدوم قدرها المحتوم، عويل الأطفال يتصاعد في السماء ونحيب النساء يتعالى من كل صوب وحدب، جثث القتلى تملأ الأزقة والطرقات والأشلاء وبرك الدماء في كل مكان.

نفذ كدر لعومر مذبحته الفظيعة في السدوميين بدم بارد، بل كان تعطشه كبيرا للبطش والفتك، فقتل معظم الرجال الذين لقيهم في طريقه حتى من لم يكن يقاتل أو يحمل سلاحا، وأسر الحسناوات من نسائهم، واستولى على كل ممتلكاتهم، ثم أمر كتيبة من الجنود بأن يطوفوا في أحياء المدينة وأزقتها

وشوارعها، وينادوا في أهلها بأن يلزموا بيوتهم ولا يبرحوها أبدا حتى يأذن لهم، وكل من يطل برأسه من باب أو نافذة فسيتم قتله والتنكيل به، فعل ذلك حتى يتسنى له ولجنوده أن يُحكموا سيطرتهم على المدينة ويشلوا حركتها ويستولوا على كل مرافقها.

لم تكد الشمس تتوسط كبد السماء حتى كان كدر لعومر قد انتهى من بسط سيطرته على كامل مملكة سدوم، ووضع بعضا من كتائب قواته على أطرافها، وأغلق أبوابها ووضع رجاله على أبراجها يرقبون له الوضع، كما طارد كل من شك في انتماءه لعسكرها، حتى قضى على كل جيشها، وتفرغ لجمع غنائمه.

حرص كدر لعومر على إفراغ خزائن سدوم ومعابدها من كل ما تحتويه من مال وذهب وفضة وخلص إلى أثريائها فصادر ممتلكاتهم وسلبهم أموالهم ومتاعهم وكل مدخراتهم ومن اعترض منهم قتله أو سجنه، ثم عمد إلى قصر الملك بارع فأمر بإعداده وتنظيفه من الجثث والدماء المسفوكة على جدرانه ليقيم فيه، وانتدب أحد قادته ليقوم على تأمينه كما يجب، وأشار عليه أن يضع حراسا متيقظين بكل المداخل والمخارج وكذا الأجنحة والغرف وشدد على تأمين كل الردهات والممرات والشرفات والأسطح لضبط أي متسلل.

على الجانب المقابل كانت الفرقة الثانية من جيش بابل بقيادة بلشيم تقف على أبواب عمورة التي لم يكن حظها أفضل من حظ أختها سدوم فلم

تلبث أن سقطت عن بكرة أبيها في قبضة البابليين، بعدما حاول ملكها برشاع أن يفِر في كتيبة من حراسه وأقرب مقربيه إلاّ أن القائد بلشيم، أدركه وأوقعه من على فرسه وقتله، ثم فصل رأسه عن جسده وعلّقها على سن رمح وطاف بها في أرجاء المدينة، فاستسلم أغلب القادة ووضعوا أسلحتهم واستأسروا، الأمر الذي دفع بالكاهن الأعظم إلى الاستسلام هو أيضا وتسليم المعبد ومفاتيح البوابات طوعا لقوات بابل، بل وأمر من ثبت من جند العموريين أن يضعوا أسلحتهم ويسلموا أنفسهم، مقابل الحفاظ على حياتهم .

لم تمض سوى ساعات قليلة حتى استتب الأمر للبابليين في عمورة أيضا بعدما أحكموا سيطرتهم على كل مداخلها ومخارجها، وقتلوا كل من حاول مقاومتهم سواء من القادة أو الأعيان أو حتى سائر العامة من الناس، وصادروا قصر الملك وخزائن المدينة كلها واستولوا على ثرواتها وكل مخزوناتها من الذهب والفضة، واستحوذوا على الأراضي والممتلكات وأقفلوا الأسواق والمحلات فباتت المدينة تحت أيديهم ساكنة مشلولة.

لم يكد النهار أن ينتصف حتى تمكن القائد بلشيم من إخضاع المدينة تماما لسلطته، وأحكم قبضته الحديدية عليها، ثم طلب من أحد الفرسان الكبار أن يتجهز ويخرج في كتيبة من خمسين فارسا ويحملوا رأس برشاع في جراب إلى الملك كدر لعومر ليزفوا له خبر نجاح حملتهم واحتلال عمورة.

أخذ كدر لعومر مكانه في قصر بارع وكان تفكيره منشغلا بما ستؤول إليه الأوضاع في عمورة، فهو لم يكن يشك بكفاءة قائده بلشيم ولا ببسالة جنوده، وكان متأكدا من انتصارهم، لذلك كان ينتظر خبرا منهم يؤكد له ذلك، حتى يتسنى له التدبير لإخضاع ما تبقى من ممالك غور الأردن.

في ذلك الحين كان آبيثار لا يزال قابعا في باحة السرداب تحت القصر، يتحين الفرصة للخروج ومحاولة النجاة بنفسه وولده، أحس بفتور الحركة في الخارج، ولم يعد يسمع جلبة الخيل ولا وقع المعارك، حتى عويل النساء والأطفال الذي كان يخترق الفضاء لم يعد له حس، وكأن الهدوء عم المكان. لم يعرف أن كدر لعومر حظر التجول وشل الحركة في المدينة كلها. دفع به الفضول والقلق إلى الرغبة في معرفة ما صار إليه الوضع بالخارج، فهمَّ بمغادرة مخبئه والخروج من القصر كله، لكن قبل ذلك قرر التخلص من البزة العسكرية التي كان يتنكر فيها، فنزع عنه صدريته مكتفيا بقميص صوفي كان يلبسه تحتها، ونزع عنه خوذة الرأس أيضا وحذاءه الجلدي وألقى بسيفه جانبا فلن يغني عنه شيئا على كل حال، لكنه كان يضع خنجرا أسفل سرواله يربطه إلى ساق رجله اليسرى، تذكر قلادته التي كان يتقلدها، فنزعها من عنقه وألبسها لولده ياكين بعدما قصَّر خيطها، ثم سار بخطى حثيثة في ردهة القبو المؤدية إلى المخرج، وضع أذنه على الباب محاولا استراق السمع، لكنه لم يستطع التقاط شيء، ففتح الباب وخرج بحذر، لم يكد يخطو خطوة واحدة حتى أحس بسن سيف مسلطا على رقبته، وسمع

صوتا خشنا يأمره بأن يقف مكانه كان ذلك أحد حراس المراقبة الذي يقف في الردهة ويراقب المكان، تسمر آبيثار في مكانه، امتثالا لأمر الحارس بألاّ يأتي بأية حركة وإلاّ فصل رأسه عن جسده، والذي ما لبث ان ألقى عليه القبض واقتاده مع ابنه إلى كدر لعومر لينظر في أمره، وفي أمر السرداب الذي خرج منه.

أدرك آبيثار أن مصيره سيكون القتل أو السجن مدى الحياة، فهذا القائد البابلي لن يرحمه، لكنه لم يجزع على نفسه فكل ما يؤرقه الآن هو مستقبل ابنه ياكين، المسكين سيدفع ثمن جرائم والده، ترى ماذا سيكون مصيره ؟ وأي جحيم هذا الذي سيلاقيه؟

دخل الحارس على كدر لعومر وسيفه مسلط على رقبة آبيثار ، التفت إليه متبسما وهو يقول، يبدو انك جئتنا بصيد جديد ؟

الحارس: نعم سيدي، لقد اصطدت هذا المتسلل وهو يحاول الدخول الى القصر من سرداب سري، وأتيتكم به.

- كدر لعومر متسائلا :قلت سرداب؟ جيد جدا، علينا إذن أن نترقب وصول زوار آخرين في أية لحظة، ثم نظر إلى آبيثار نظرة خاطفة واستطرد قائلا حسنا أتركه لنا سنتولى أمره، وعد أنت إلى مكانك وابق متيقظا حتى أبعث إليك بمن يرى في أمر هذا السرداب.

الحارس: أمرك سيدي.

نهض كدر لعومر من على كرسيه، ومشى قليلا ثم وقف بجانب نافذة تطل على حديقة القصر، كأنما شرد قليلا يفكر في أمر هذا السرداب وما لبث أن طلب من أحد مساعديه أن يتولى البحث في الموضوع بنفسه، أشار عليه أن يستعين ببعض خدم القصر وحراسه الذين كانوا يعملون تحت إمرة الملك بارع فهم أدرى بالمكان، ولا شك أنه يوجد بينهم من لديه فكرة جيدة عن الأقبية والسراديب والطرق المؤدية إليها، وأمرهم بأن يفعلوا نفس الشيء بالنسبة لباقي القصور والمعبد أيضا، فربما تكون تلك السراديب تؤدي إلى مخابئ سرية تستعمل لاكتناز الأموال والحلي الثمينة.

كان صراخ الطفل ياكين يتعالى في المكان، حتى أثار انزعاج كدر لعومر فانتبه له آبيثار وقال له مستعطفا:

- معذرة سيدي، هذا طفلي ياكين وإنما يصرخ من شدة الجوع فهو لا يزال رضيعا، ولم يدخل جوفه أي طعام منذ وقت طويل.

كدر لعومر : وأين أمه وما الذي دفعك لتتسلل به إلى القصر؟

آبيثار: في الحقيقة يا سيدي أنا لا أعرف أين يمكن أن تكون فهي لم تعد زوجتي منذ أن أخذها مني ملك سدوم بالقوة، لكنني أظنكم أسرتموها مع باقي نساء القصر، أما بشأني فسأروي لكم حكايتي بالتفصيل لكني أطمع قبل ذلك أن تأمروا لي بما أسكت به جوع ابني الرضيع حتى يهدأ روعه.

طلب كدر لعومر من أحد جنده أن يأخذ منه الطفل ويبحث له بين الخدم والسبايا عمن يمكنها أن تتولى أمر إطعامه ورعايته حتى يفرغ هو من استجواب والده، ثم ينظر في أمرهما معا.

هم الجندي بأن يأخذ الطفل ياكين من آبيثار غير أن هذا الأخير تردد في أن يسلمه له، لكنه عاد وقبل بذلك على مضض.

كان كدر لعومر يتفحص في صمت هيئة آبيثار هذا الواقف أمامه، فشكله مختلف تماما عن شكل السدوميين، شعره خشن ولون بشرته مائل بشدة إلى السمار طباعه فظة عكس طباع أهل سدوم اللينة، الأمر الذي جعله يتساءل في فضول عمن يكون؟

أخذ الجندي الطفل من والده، وتوجه به إلى جناح السبايا، سأل عمن يمكنها أن تعتني به وتتدبر إطعامه ورعايته حتى حين، وكانت من بينهن أمه حورانة التي ما إن رأته حتى انتفضت من مكانها متلهفة وانتزعته بقوة من بين يدي الحارس راجية منه ألا يأخذه منها ثانية فهي أمه وأقدر الناس على رعايته وتدبر أمره. تفاجئ الجندي من ردة فعل حورانة الغريبة لكنه لم يعارضها بل تركه لها وغادر دون أن يكترث لأمرها.

عاد الهدوء إلى الجناح الذي يتواجد به كدر لعومر، كان يدفعه الفضول لمعرفة من يكون آبيثار هذا وما قصته، فما لبث أن أمره بنبرة حادة ووجه مقطب أن يخبره بكل شيء خصوصا فيما يتعلق بقصة زوجته التي سلبها منه بارع وكذلك عن كيفية تسلله إلى القصر وسبب قيامه بذلك، لكن

وما إن همّ آبيثار بالكلام، حتى استوقفه صوت حارس الجناح، الذي جاء ليخبر كدر لعومر بوصول مبعوث القائد بلشيم من عمورة وبأنه على الباب ينتظر الإذن بالدخول.

ابتهجت أسارير كدر لعومر لكنه سرعان ما عاد وقطّب حاجبيه ونهر حارسه قائلا: عليك لعنة الإله تحرقك، كيف تجعل مبعوث القائد بلشيم ينتظر؟ فليتفضل بالدخول حالا.

دخل الفارس على كدر لعومر والابتسامة تعلو وجهه، فابتدره كدر لعومر بالتحية قائلا:

- مرحبا بمبعوث قائدنا بلشيم كنت انتظرك، هيا هات ما عندك؟

- الفارس: تفضلوا سيدي فالخبر السعيد يوجد هنا في هذا الجراب.

اعتلى كدر لعومر كرسيه الفخم، واعتدل في جلسته وقال مبتسما كأنما كان متأكدا من خبر النصر:

- وما في جرابك هذا؟ لم لا تفتحه بنفسك وترينا ما فيه ؟ هيا أرنا بسرعة، فأنا وسائر فرسان بابل نتطلع لمعرفة ذلك بشغف ولا وقت لدينا للتخمين.

أدخل الفارس يده في الجراب الجلدي وأخرج منه رأس "برشاع" المقطوعة في منظر بشع ومقزز، ثم قال منتشيا:

- لقد بعث القائد بلشيم لجنابكم برأس ملك عمورة هذه، وأمرني أن أزف لجنابكم خبر اخضاع عمورة بالكامل ودحر جيشها.

اهتز قادة وفرسان جيش بابل الموجودين في القاعة، فرحا، بمن فيهم كدر لعومر وأثنوا على القائد بلشيم وقواته، وتبادلوا التهاني فيما بينهم، وبينما هم كذلك، استطرد رسول بلشيم قائلا:

- لقد تمكنت قواتنا من تجاوز أسوار عمورة واقتحامها ودك كل حصونها واخضاعها كليا لسيطرتنا، كما تم الفتك بكل من حاول مقاومتنا، أو الوقوف في وجه قواتنا، واستولى فرساننا على بلاط الحاكم والمعبد ومخازن السلاح، ثم أمر القائد بلشيم بتأمين البوابات وإغلاقها ونشر القوات على طول السور المحيط بالمدينة وفوق أسطح البنايات وأحكمنا إغلاق كل المنافذ ثم قمنا بمصادرة كل أموال العموريين وأفرغنا خزائنهم من محتوياتها بالكامل، وأحكمنا السيطرة أيضا على مخازن القمح والحنطة، والآن فإن جناب القائد بلشيم ينتظر توجيهاتكم للمرحلة الموالية.

- أطلق كدر لعومر قهقهات عالية فرحا بما سمعه من أخبار، وأثنى على قائده بلشيم، ثم أمر مساعديه أن يعلنوا نبأ سقوط عمورة في كل أرجاء المدينة، لترتفع معنويات الجند وتنكسر نفوس السدوميين نهائيا، ويثير في نفوسهم الرعب حتى ييأسوا من أي محاولة للتمرد عليه ولا يفكروا في تدبير المكائد، وأمر بالموازاة مع ذلك باستدعاء الفرقة الثالثة المرابطة خارج أسوار المدينة لتلحق به إلى داخل سدوم حتى يزف إليهم الخبر ويدبر لما بقي من معارك .

في هذه الأثناء كانت حورانة تداعب ابنها الصغير الذي استعادته بين أحضانها، فقد خفَّفَت عودته إليها من صدمتها وحزنها على ما آل إليه حالها، كما تدبرت أيضا أمر إطعامه، فمرضعته كانت أسيرة معها في نفس الجناح ولم ترفض طلبها بإرضاع ابنها بل ولم تبخل على ياكين بما جاد به ثديها حتى شبع ونام. وبينما كانت حورانة تتلمس جسد ابنها برفق وحنان، أثار انتباهها وجود قلادة من الياقوت الأحمر عرفتها على الفور، فقد علمت أنها تعود لزوجها السابق آبيثار، فأدركت أن ابنها إنما كان مع أبيه وأن هذا الأخير ربما يكون هنا بالقصر أو في مكان ما قريب منهما، أيقنت في قرارة نفسها أن آبيثار إذا كان لا يزال على قيد الحياة فلا بد وأنه سيأتي للبحث عن إبنه ممنية النفس من أن يتمكن من إنقاذها هي أيضا من ذل الأسر ومن المصير المجهول الذي بات ينتظرها.

استعاد كدر لعومر بعض هدوءه بعد نشوته بخبر النصر، ونظر لآبيثار نظرة خاطفة ثم أشاح عنه وطلب من الحراس أن يودعوه في أحد السجون حتى يفرغ له، فتفكيره الآن بات منشغلا أكثر فأكثر بضم بقية الممالك والانتهاء من هذه الحرب سريعا، وقد عزم على إخضاع كل من أدومة وصبوئيم وصوغر لكن دون أن يخسر مزيدا من الرجال، وعليه أن يدبر لذلك بهدوء وتركيز كبيرين.

في هذه الأثناء كانت الفرقة الثالثة من جيش بابل القادمة من التخوم قد وصلت إلى قلب سدوم يقودها فارس إسمه أشوَر، كانت هذه الفرقة على

أهبة الاستعداد وفي كامل الاستنفار لخوض أي حرب مهما كانت ضراوتها، فقد نال جنودها كفايتهم من الراحة والنوم والغذاء، لم ينتظر أشور كثيرا فاجتمع بمجرد وصوله بالقائد كدر لعومر لوضع خطة للغارة على بقية الممالك الثلاثة والتي لم تكن بأية حال بحجم وقوة سدوم وعمورة، فعدد سكانها مجتمعة أقل بكثير بالمقارنة مع عدد سكان سدوم وعمورة، ولا بد وأن تجهيزاتهم لن تكون بحجم تجهيزات جيش بابل، خصوصا وأنهم غنموا كمًّا نوعيا ومهما من السلاح والعتاد، غير أن رغبة كدر لعومر في أن يكسب الحرب دون أي خسائر في الأرواح، جعلته يتريث قليلا حتى ينظر في تدبير يجعل باقي الملوك يستسلمون له دون قتال.

كانت خطة كدر لعومر هذه المرة مختلفة عن سابقاتها فقد غيّر سياسته العسكرية القائمة على الفتك والبطش وضراوة القتال إلى التفاوض والحيلة، فأمر الفارس أشور أن يخرج إلى الممالك الثلاث وألاَّ يبادرها بالقتال بل يكتفي بحصارها وتطويق أسوارها من كل الجهات وإغلاق أبوابها ومنافذها كلِّيا، كما أمره بأن يتزود بما يفوق حاجته من العتاد والسلاح، خصوصا آلات الحصار وهدم الأسوار مثل الدبابة الحجرية والمجانيق الضخمة، وقذائف القطران، و الأحجار، والدروع الحديدية، كان هدفه من ذلك كله أن تكون حربه نفسية أكثر منها قتالية، وليثير الرعب في نفوس أعداءه بكثرة عُدّته وقوة عتاده، وأن يجعل الخوف يوهن عزيمتهم ويحطم معنوياتهم، ولتكتمل خطته أمر بعض مساعديه بالبحث

عن جثة الملك بارع وأن يأتوه برأسها ليضعها على رمح إلى جانب رأس برشاع ملك عمورة، وطلب من أشور أن يحمل الرأسين بعض من جنود المقدمة، و عند وصوله إلى كل مدينة من المدن الثلاث يطلب من ملكها الخروج إليه مستسلما، مستأمنا وأن يفاوضه على دخولها دون حرب أو قتال، مقابل السماح لمن أرادا أن يغادرها دون أن يطاله سوء مستأمنا لنفسه وماله، أما من امتنع ورفض الاستسلام فيهدده بأنه سيلقى نفس مصير بارع وبرشاع وأن رأسه ستقطع وتعلق على مدخل قصره.قرر كدر لعومر ان يكون خروج أشْوَر وقواته مع فجر اليوم الموالي وأن يبيتوا ليلتهم في سدوم لينال الجيش كله قسطا أو فر من الراحة، فلم يعد هناك ما يدعوا للإسراع والإسراف في الجهد والاستنفار بعدما شارفت حملتهم المظفرة على الانتهاء.

الفصل الثاني عشر: صوغر وصبوئيم والانتصار الصغير

لم تكد الشمس تمضي لمغربها وينسدل ليل سدوم وعمورة لينهي يومهما الطويل والدموي حتى شاعت أخبار سقوطهما مدوية بين بقية ممالك غور الأردن، وشاعت معه اخبار المقتلة العظيمة التي نفذتها قوات كدر لعومر في الأهالي، الأمر الذي جعل الخوف يدب إلى نفوس حكام تلك المدن قبل شعوبها، فالكل بات ليله يترقب ماذا ستفعل به الأقدار، ولم يكن ملوك أدومة وصبوئيم وصوغر ليعرف النوم طريقا إلى أعينهم بعدما اضطربت أحوالهم واهتزت عروشهم. وكان أكثر هؤلاء الملوك رعبا وخوفا هو ملك صوغر، فهذه المملكة الصغيرة لم يكن لها جيش يحميها مثل بقية الممالك وذلك لصغر مساحتها وقلة عدد سكانها كما أن قربها من مملكة سدوم جعلها طيلة السنين الماضية تعتبر محمية خاصة للملك بارع، فكان أهلها يدينون بالولاء لحاكم سدوم ويؤدون له الإتاوات المفروضة و يصلونه بالعطايا والهدايا في كل مناسبة.

كان حاكم مملكة صوغر هذا رجلا عبرانيا غريبا عن المملكة التي يحكمها وكان يدعى مَدْيَن، وهوابن رجل اسمه داشين أتى من غرب الوادي قبل سنين طويلة بعدما خرج من أرض كنعان واستقر في سدوم وعمل بها نديما وقوّادا للملك بارع مهمته أن يبحث ويتخير له الجميلات من النساء،

وأكثرهن حسنا وبراعة في المعاشرة والمنادمة، ويأتيه بهن من كل صوب وحدب.

وحدث أن داشين حلَّ ذات مرة ضيفا على ملك صوغر السابق في قصره، فإذا به يرى زوجته وكانت حسناء الوجه حسنة القد، مليحة القوام، رخيمة الصوت، خفيفة الظل والروح، فأعجبته وحدَّث عنها سيده بارع ورغّبه فيها حتى رغب ،فأمره بإحضارها له. ولما عمد داشين إلى ملك صوغر وفاتحه في أمرها، غضب منه غضبا شديدا حتى احمرّ وجهه وانتفخت أو داجه وثارت ثائرته، فما لبث أن قتله ونكّل بجثته، ووصل خبره إلى الملك بارع الذي ساءه مقتل نديمه وخادمه على يد حليفه ملك صوغر فاعتبر ذلك انتقاصا من هيبته وخرقا للأعراف السائدة والمرعية بين الملوك وغضب لذلك غضبا شديدا وعزم على الانتقام منه، فأرسل فيلقا من الجند إلى صوغر اقتحموا قصر ملكها واعتقلوه واقتادوه مصفدا في الأغلال أمام شعبه حتى دخلوا به على الملك بارع الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة، وليزيد من إذلاله قام بتولية مَدْيَن بدلا عنه ليكون ملكا على صوغر ويكون يده على أهلها وأموالها ويغنم له من خيراتها وثرواتها نصيبا معلوما ومفروضا.

كان مَدْيَن العبراني معروفا بزندقته وكثرة شرِّه في أهل صوغر فلم يكتفي بتسلطه على رقابهم وهو غريب عنهم، بل كان يقسم معهم أرزاقهم ويحاصصهم في غلالهم ومحاصيلهم، وكان يثقل عليهم بجبايات كبيرة

وإتأوات يفرضها على الأغنياء منهم والفقراء على السواء، ومن يعجز منهم أو يمتنع فكان يسترِقُّه أو يُنَكِّل به ويصادر أرضه وممتلكاته، فكان ظلمه شديدا وقسوته لا حدود لها ،لدرجة جعلت كل شعب صوغر يكرهه ويناصبونه العداء.ولمَّا كان ذلك حال مدين مع شعبه فإنه أدرك يقينا أن مقتله بات لا محالة وشيكا، وإن لم يكن بيد البابليين فبكل تأكيد سيكون بيد الساخطين عليه من شعب مملكته الصغيرة وقد أضحى وحيدا لا ناصر له، لذلك جمع ما قدر عليه من كنوز وأموال وهرب متسللا مع بعض حراسه وخدمه تحت جنح الليل فارّا إلى كنعان على الجانب الغربي من نهر الأردن، وتاركا مملكة صوغر وشعبها يواجهون مصيرهم لوحدهم.

انبلج فجر اليوم التالي، وبدأ القائد أَشْوَر في التحرك قاصدا أرض صوغر باعتبارها أقرب الممالك إليه وأصغرها، فلم تكن تبعد عن سدوم سوى بمسافة خمسة أميال سرعان ما طوتها أقدام الخيل والجند، ليقفوا عند بوابتها، ويتفاجؤوا بما رأوه، فقد كانوا يتوقعون أن يجدوها محكمة الإغلاق والقوات مستنفرة على أسوارها، غير أن ما يشهدونه أمامهم أثار استغرابهم، لقد كانت البوابة مفتوحة على مصراعيها وكان يقف عندها رهط من الناس يتقدمهم رجال يظهر من هيئتهم أنهم كهنة، أما ما سواهم فقد كانوا جميعا عزلا لا يحملون سيوفا ولا يظهر على أي واحد منهم هيئة المستنفر للحرب.

بعث هذا الموقف فضول القائد أشْوَر وحذره أيضا، فأمر قواته بالتوقف والتراجع قليلا مخافة أن يقعوا في كمين أو مصيدة، وطلب من رماة النبل أن يتقدموا إلى الصفوف الامامية، ويستعدوا لإطلاق سهامهم، فلما رأى أهل صوغر منهم ذلك، هرعوا إليهم مستصرخين ورافعين أيديهم إلى السماء يطلبون الأمان حتى قدموا إلى أشْوَر، ولما سألهم عن سبب خروجهم إليه، أخبروه أنهم لا ينوون قتالا ولا يحملون سيوفا ولا سلاحا، وإنما عجلوا إليه مستسلمين مستأمنين لأنفسهم ونسائهم وفاتحين له الأبواب طوعا طامعين في سلمه، ثم سألهم عن ملكهم، فأخبروه أنه لما سمع بوقعتهم في أهل سدوم وعمورة جمع كل ما يقدر عليه من أموال ومتاع وخرج في غفلة منهم متسلِّلًا تحت جنح الظلام ومعه كبير كهنة المعبد أيضا وبعض الحراس وأنهم يجهلون وجهته، وزادوا أن ملكهم الهارب، ما فعل ذلك إلاّ لأنه علم يقينا أن أهل صوغر وشعبها لن يمنعوه من البابليين ولن يقاتلوا معه، وأنه إنما فرّ بجلده فذلك لينجو بنفسه من سيوفهم أوَّلا قبل سيوف غيرهم لما عاث فيهم من ظلم وقهر طيلة سنوات مستقويا عليهم بسلطان سيده بارع الذي كان يفرضه عليهم عنوة.

دخل أشْوَر بمعية قواته مملكة صوغر، واستحكم على أمرها وآل إليه سلطانها، واقتحم بلاط الحكم وصادر ما بقي في خزائنه من أموال وذهب مما لم يقدر مدين على حمله وفعل نفس الشيء مع المعبد، وأمر الكهنة وكبراء المدينة وأشرافها بألاّ يأتوا بأي تصرف أو تدبير إلاّ بأمر من قائد

يوليه عليهم، و قيّد حركتهم بأن ألزمهم بيوتهم، كما أمرهم أن يقدموا ما يليق بقائد جيش بابل العظيم كدر لعومر من عطايا وهدايا وأموال نظير الإبقاء على حياتهم وحقن دماءهم، فجمع من ذلك أموالا وفيرة ومغانم كثيرة، ثم انصرف بعد ذلك لتأمين المدينة فوضع على أسوارها بعضا من قواته، وأحكم إغلاق أبوابها ونصب المتاريس بين أزقتها ودروبها ليضمن مراقبة حركة السير بها والتحكم في عصب حياتها.

سرعان ما استتب الأمر للقائد أشْوَر في مملكة صوغر ساعده في ذلك استسلام أهلها ومهادنتهم له، فلم يكونوا أهل حرب وقتال وكانوا طائعين له ومتعاونين معه إلى أبعد الحدود، حتى أنهم دلّوه على كل ما خفي عليه من منافذ وطرق وسراديب وأقبية، وسلَّموه مفاتيح المخازن كلها بما تحتويه من محاصيل الحنطة والقمح وغلال مزارعها وكل خيراتها، ولم يتبق له الآن سوى تولية من سيخلفه على أمرها ليواصل مسيره إلى صبوئيم وأدومة حيث ينتظره عمل كثير.

في الوقت الذي كان فيه جيش بابل بقيادة أشْوَر يستعد للمسير إلى مملكة صبوئيم كان ملكها شمَئِيبَر مجتمعا بمستشاريه ووزرائه وسائر كبراء مملكته من الكهنة والأعيان وقادة الجند، لينظروا الرأي في أمر الحرب التي تطرق أبوابهم بعدما ضرست حلفاءهم في سدوم وعمورة وها هي صوغر تسقط هي الأخرى دون أن تسيل من أجلها ولو قطرة دم واحدة. كان اجتماع سادة صبوئيم عاصفا وصاخبا إذ اختلفت آراءهم واحتدم نقاشهم

حتى تعالت أصواتهم وانقسموا إلى فريقين، ضم الأول منهما كهنة المعبد والأشراف وسائر رجال الوزارة والسياسة وممثلي الأهالي وكان رأيهم أن يهادنوا البابليين ويستأمنوا منهم لأنفسهم وأهلهم بما يطلبه قائدهم من مال ومتاع، فلا طاقة لهم بمواجهته وهو العدو الذي كسر شوكة أعتى الأمم قبلهم. أما الفريق الثاني فضم قائد الجيش وكان يدعى سُرَايَا ومعه الملك شَمْئِيبَر وكانا يريان ألاّ يسَلِّموا ما في أيديهم لعدوهم وأن يستعصموا بأسوارهم العالية ويتحصنوا وراء أبوابهم المنيعة، معتقدين أن عدوهم لن يصلهم بشر ما بقوا متحصنين في قلاعهم ومستعينين بنبلهم ونشابتهم، وأن المقاتلين البابليين لن يطيقوا محاصرتهم لوقت طويل خصوصا وأن الشتاء بات يطرق الأبواب وهم منقطعين منذ زمن عن أرضهم وأهليهم، وماهي سوى أيام وأسابيع قليلة حتى يسأموا ويرجعوا عنهم.

استبد الملك برأيه وانفض اجتماع أهل صبوئيم دون أن يتمكن الكهنة ومعهم بقية الوزراء ومستشاري البلاط من إقناع الملك بعدم جدوى المقاومة، فقد صم آذانه عنهم وانساق وراء رأي قائد جنده سُرايا، الذي أعلن الاستنفار وأمر قواته بإغلاق البوابات، ونشر كتائب رماة النبل على الأسوار، ولم يكتف بذلك بل قام بالاستيلاء على مخازن الحبوب بما تحتويه من محاصيل القمح والحنطة والذرة وأكياس الأرز ووضع عليها حراسا يمنعونها، وذلك ليتمكن من التحكم في توزيعها تحسبا لطول مدة حصارهم.

لم تمض إلاّ ساعات قليلة على إعلان الملك شمئيبر وقائد عسكره سُرايا عن قرار الاستنفار والاستعداد لمقاومة القوات البابلية، حتى وافتهم أعينهم المبثوثة على الأسوار بقدوم أشْوَر في جيش جرار عظيم العدة مكتمل العتاد، وحسَن التنظيم، يثير الأرض والنقع ويبعث الرعب في نفوس الحلفاء قبل الأعداء.

كان أشْوَر يتقدم قواته ممتطيا فرسه، بقامته العالية وجسده الضخم ولحيته السوداء الكثيفة المشوبة بالبياض، متوشحا بسيفه البتار المسنون، يعتمر جبة حديدية عليها قرون ثور، ويرتدي بزة مصنوعة من الجلد ويحمل ترسا ضخما في يده اليمنى، وكان بحق قائدا مهيبا وفارسا شجاعا، يثير الهيبة والخوف في نفس كل من يراه، وبمجرد وصوله إلى صبوئيم باشر حصارها وأمر قواته فأحاطوا بأسوارها من كل جانب ونصبوا مجانيقهم باتجاه أبوابها ووجهوا مدفعياتهم نحو أسطحها حيث يتمركز رماة النبل بين الفجوات.

تقدم القائد أشْوَر بفرسه قليلا ووقف غير بعيد من البوابة ثم خاطب من يقفون وراءها بنبرة حازمة ولسان واثق طالبا منهم أن يبلغوا رسالته للملك شمئيبر بأن يستسلم ويحقن دمائه ودماء قواته مقابل السماح له بالمغادرة مع أهله ومن يختار مرافقته دون أن يمسه سوء، وإلا فمصيره سيكون مثل مصير بارع وبرشاع وها قد أتاه برأسيهما على رمح كي يكونا عبرة له فليس الخبر كالعيان ومن رأى ليس كمن سمع .

كان الملك شمئيبر يراقب الوضع من وراء البوابة وينظر من عين محفورة في الحائط، وقد سمع كل ما قاله أَشْوَر ورأى رأسي الملكين بارع وبرشاع مغروزين على سن رمح، فهاله منظرهما حتى ارتعدت فرائصه وانخلع قلبه، بل وزاد رعبه وهو يرى ضخامة جيش بابل وقوة مقاتليه وصلابتهم وعزيمتهم وهم منهمكون في نصب مقاذف حمم القطران ودباباتهم التي تستعمل لتحطيم الجدران ودك الأبواب، فأدرك أن امتناعه بعلو أسواره واستعصامه وراء الأبواب المغلقة لن يغني عنه شيئا ولن يصمد أكثر من يوم واحد أو دون ذلك، وبالتالي فستكون نهايته على سن رمح كمن سبقوه. أيقن أخيرا أن الأمر أخطر وأعظم مما كان يعتقد، وأن خطة القائد سُرايا لن تجدي نفعا ولن تؤتِ فائدة، فلا حليف لهم ينتظرون نصرته، ولا مدد سيعينهم على عدوهم، وسرعان ما عاد للاجتماع بكهنة المعبد وسائر الوزراء وكبراء المدينة ليستشيرهم، فأشاروا عليه بعدم جدوى المقاومة، وضرورة تقدير الوضع على حقيقته والرضوخ لأمر القائد أَشْوَر، فالعقل والحكمة يقتضيان أن يغنموا جميعا هذه السانحة التي ستمكنهم من حقن دمائهم وحفظ أنفسهم ومدينتهم وتجنبيهم مهلكة عظيمة لا تبقي ولا تذر. لم يجد الملك شمئيبر بُدًّا من النزول على رأي أهل صبوئيم والقبول بتسليم المدينة للبابليين مقابل السماح له ولمن أراد مرافقته بالخروج منها سالمين آمنين، وطلب من كبير الكهنة بأن يشرف بنفسه على الاتفاق مع

البابليين، كما أمر قواتهَ بالامتثال لأوامر الكاهن، وطلب منهم التراجع دون الأسوار ووضع السلاح.

بارك كبير الكهنة هذا التدبير واعتبره قرارا صائبا يصب في مصلحة كل أهل صبوئيم لما فيه من حقن للدماء وحفظ للأرواح، غير أن هذا التدبير لم ينل رضى القائد سرايا، الذي اعتبر أن قرار الملك بالانسحاب وتسليم المدينة فيه خيانة عظمى تستوجب أقصى العقوبات، وبما أن المملكة في حالة حرب، فإن منصبه كقائد للجند يخوله أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه بعد تخاذل الملك عن القيام بواجبه والدفاع عن أرضه، وفي غفلة من الجميع استل سرايا سيفه، وغرزه في صدر شمئيبر وأرداه قتيلا من فوره، ثم صرخ في جنوده وطلب منهم إلقاء القبض على الكاهن واعتقاله، لكن سرعان ما انبرى حراس المعبد للدفاع عن الكاهن والتصدي لأتباع سرايا على قِلَّتهم، وساد الهرج والمرج وعمّت المكان جلبة كبيرة حتى كاد الأمر أن يتحول إلى مواجهة مباشرة بين الفريقين لولا تدخل بقية القادة العسكريين الذين رأوا في تصرف القائد سرايا تهورا وجريمة غير محسوبة العواقب وما لبثوا أن انحازوا لحراس المعبد، وطلبوا من كافة الجند أن يغمدوا سيوفهم، فبالنسبة لهم يظل الكاهن الأعظم هو ظل الإله بعل على أرض صبوئيم بعد مقتل ملكها، وهو صاحب صلواتهم وبيده مفاتيح بركات السماء، وأي سوء يمسسه سيجلب عليهم غضب الرب ويُحِلُّ عليهم لعناته.

لم يستسغ القائد سرايا أن ينقلب عليه قادة الجند بل وحتى أقرب مساعديه، خصوصا بعدما طلبوا منه أن يوقف تمرده على سلطة المعبد وأن يُسَلِّم نفسه، فما كان منه إلاّ أن صعد إلى أعلى برج للمراقبة على سور المدينة و هو أكثر الأماكن ارتفاعا وألقى بنفسه من هناك مفضلا الموت على أن يستسلم لهم، حينئذ أمر الكاهن الأعظم بفتح البوابة للبابليين، وأشرف بنفسه على تسليمها للقائد أشْوَر الذي كان يتوسط قواته كأسد ضاري بين الوحوش، كما شهد خروج عدد من ساداتها هاربين بأهلهم وثرواتهم، الأمر الذي دفع بالقائد أشْوَر ليتدخل ويصادر أموالهم فالاتفاق كان يقضي بخروجهم سالمين آمينين في أبدانهم فقط ودون أموالهم وثرواتهم التي تعتبر ثمنا لحفظ أرواحهم وحقن دمائهم.

انقضى عصر اليوم الثاني من حملة البابليين وتمكن القائد أشْوَر من دخول صبوئيم وتأمينها بالكامل وبسط سيطرته على كل أسوارها ومعابدها ومخازن السلاح والغذاء فيها، كما تمكن أيضا من حجز كميات كبيرة جدا من الذهب والفضة. ورغم استسلام أهلها له شأنهم شأن أهل صوغر فإنه لم يكن يأمن على نفسه وجنده من غدرهم وكيدهم، فلم يلبث أن أمر المنادي بأن يطوف في الأزقة ويطلب منهم ومن كل من يحمل سيفا أو سلاحا أن يسلمه إلى مخزن السلاح طوعا، قبل البدء في حملة تفتيش ومداهمات، ومن يضبط عنده سلاح يمشي به أو يحتفظ به في بيته أو في أي مكان فإن القتل سيكون مصيره. فسارع الأهالي بتسليم أسلحتهم

ودروعهم مرغمين مخافة البطش بهم حتى غدا كل أهل صبوئيم عزّلا، ثم عمد إلى قادة الجيش فاعتقلهم جميعا وأمر بنفيهم خارج المدينة، ومنع عليهم دخولها أو الاتصال بأهلها.

في هذه الأثناء كان كدر لعومر قد أمر بإحضار آبيثار ليستمع له ويروي له قصته، وكيف أغرته سدوم بمدنيتها حتى أخرجته من أرض أبيه نازر، ولم يلبث آبيثار أن شرع يحكي قصته بل وكان يسهب في الحكي والوصف، فحكى له عن أرض أبيه وكيف حولها إلى جنة وسط الصحراء فيها من الجنان المثمرة والمراعي الخصبة ما تطيب له النفس وتعجب به العين، كما حكى له عن لياليه الحمراء ومجونه مع نساء سدوم وسمع منه أيضا قصته مع حورانة وحسنها، وولعه بها وصراعه مع الملك بارع الذي أخذها منه عنوة، ولما أنهى آبيثار كلامه، أعاده إلى زنزانته وطلب وأصابعه تبرم شاربه الكث، فكّر كدر لعومر بأخذ قسط من الراحة والاستمتاع مع حِسان سدوم لكنه سرعان ما تدارك نفسه وعلم أنما خروجه كان للحرب وقيادة الجند وإن كان لا بد من السهر فليكن لوضع الخطة وتدبير المعارك وتفقد الجند، وليس للاستمتاع بأجساد النساء والجواري، فوقت الاستراحة واقتسام الغنائم من الأموال والسبايا لم يحن بعد، وإنما النساء هم فتنة الرجال مذ كانوا ومن استكان لهن فإنما يضيع أمره بيده ويغامر بنفسه وبجنده، فكم من قائد قضى في غمرة رعشة زائلة بطعنة غدر، وكم من حرب خسرتها

الجيوش في مخادع النساء وليس على أرض المعارك، ثم ما لبث أن خرج بنفسه ليتفقد وينظر في أمر الجيش وخصوصا الحراس على البوابات.

الفصل الثالث عشر: قوة الدهاء ومرارة الهزيمة

فجر يوم جديد أرسل خيوط ضوئه من بعيد على أرض المعركة حيث كان القائد أَشْوَر يستنهض همم قواته لاستكمال ما تبقى من معارك فلم يعد يفصلهم عن بسط نفوذهم على كامل أراضي غور الأردن سوى بضع ساعات، لكن وبالرغم من تمكنه من إنجاز المهمة الموكلة إليه بنجاح، ودخوله صوغر وصبوئيم دون أن يريق أي قطرة دم ودون أن يخسر أي مقاتل من جنوده، فإن أَشْوَر لم يكن قانعا ولا راضيا بالنصر الذي حققه، كان هذه المرة يمني النفس بانتصار عسكري بالسلاح والدم حتى يثبت جدارته كقائد عسكري بنصر على أرض المعركة يذكره له التاريخ، فمهما كان النجاح حليفه بالمفاوضات فهي تبقى من عمل رجال السياسة وهو رجل حرب وقتال.

تراصّت صفوف الرجال على الترتيب الذي وضعه لهم بعدما أشرف قائدهم على تجهيزهم وإعداد عدتهم وعتادهم، واستبقى من وراءه فرقة من خمس مائة رجل فقط لتحفظ مدينة صبوئيم وتدير شأنها، ريثما يعود من حملته.

علم الملك شِنْآبَ سيد أدومة أن كدر لعومر وقواته لن يتوقفوا عن غزو كل ممالك غور الأردن والاستيلاء عليها وعلى خيراتها، وأيقن أن الدور آت عليه لا محالة بعد سقوط كل الممالك تباعا، وكان يعلم يقينا أن جيشه

ضعيف جدا مقارنة مع جيش بابل وأن جهازه وعدته لن توازي جهاز وعدة البابليين فضلا عن ضراوتهم المشهود لهم بها في القتال وصبرهم على الحرب وقسوتها بفضل قوة أجسامهم وصلابة بأسهم، بل وتعطشهم للفتك بمن يواجههم، لذلك فكر شنآب أن القوة وحدها ليست كافية ولا كفيلة بحسم المعارك وأن الدهاء والمكر قد يكونان مفتاح النصر وسبب الخلاص، وكان مما اتفق عليه مع قادة جيشه، ألاّ يدخلوا في حرب مباشرة مع قوات بابل، وأن يحاولوا قدر الإمكان استنزافهم بهجومات خاطفة ومباغته ترهقهم والأهم من ذلك كله أن يكون سلاحهم في هذه الهجمات سلاحا جديدا وفتاكا وغير متوقعا.

كان شنآب واثقا من نفسه، عازما على تحقيق ما عجز عنه حلفاؤه، وقد مكنه موقع مملكته الواقعة على حدود كنعان من الاحتكاك بالأمم الأخرى والاطلاع على تجاربهم وتتبع أخبارهم والاستفادة منها قدر الإمكان فقد كان كثير الاهتمام بحروب الرومان واليونانيين والمصريين، شديد الاطلاع على أسلحتهم وخططهم.

استغل شنآب اتصال أرضه مباشرة بنهر الأردن الذي كان يعبرها ويشطرها إلى شطرين، ليحصل على سلاح لم يكن ليخطر على بال أحد، فقد خصص مالا كثيرا لبعض التجار الذين جاؤوه بأربعة من التماسيح الضخمة والمفترسة من نهر النيل في مصر، وعشرات الآلاف من العقارب والأفاعي الصحراوية السامة، ثم أمر جنوده بتحصين البوابات قدر الإمكان ونَشَرَ

عددا كبيرا من رماة النبل على الأسوار لكي يعيق تقدم عدوهم قدر الإمكان، وانتظر حتى قدوم قوات بابل ليوزع المجانيق والقاذفات الضخمة حسب مكان تواجدهم، وماهي إلا ساعات قليلة حتى كان القائد أشْوَر يقف بقواته عند تخوم أدومة، وشرع بدوره في توزيع قواته ووضع ترتيباته ونشر جنوده وعتاده على طول أسوارها وقبالة بابها.

تماما مثلما حدث في صوغر وصبوئيم طلب القائد أشْوَر من ملك أدومة أن يستسلم ويسلمه المدينة دون قتال حقنا للدماء مقابل السماح له بالمغادرة حيا إلى حيث يشاء، وأمهله بعض الوقت للتفكير والتشاور ورد الجواب قبل أن يبادره بالهجوم.

كان شنآب من أكثر ملوك الوادي دهاء ومكرا، فرأى أن يستدرج القائد أشْوَر ليكسب بعض الوقت. أخبره أنه سيوافيه برد مكتوب مع أقرب مساعديه، وبعد مرور وقت يسير، أمر شنآب أحد فرسانه الأذكياء وكان معروفا بسرعة بديهته ليقوم بالمهمة، ففتح له بابا صغيرا خرج منه قاصدا معسكر أشْوَر وحاملا إليه الرد. كان الغرض من ذلك أن ينظر الفارس عن قرب في ترتيب قوات بابل وتحديد أماكنهم، وتوزيعهم، خصوصا القادة منهم، فضلا عن تقدير عددهم وأن يتفحص كل ذلك في وقت وجيز لكن بتمعن.

استقبل القائد أشْوَر مبعوث الملك شنآب الذي قرأ عليه رسالته والتي أو همه فيها بأنه قد قبل عرضه وأنه عازم على الاستسلام ومغادرة المملكة،

وأن ما يعيقه عن تنفيذ ذلك حالا هو رفض أهالي أدومة لخيار الاستسلام، وأنهم لن يتوانوا عن قتله إن هم علموا بنواياه، لذلك طلب منه أن يمهله قليلا، وأن يكون الفجر موعدا بينهما، لأنه توقيت تبادل نوبات الحراسة بين الجنود، وسيكون الوقت الامثل ليتمكن من مغافلتهم وفتح البوابة، فإذا فعل دخل البابليون واقتحموها بينما ينسل هو ومن يختارهم لمرافقته دون أن يفطن له أهل أدومة ولا أن يطالونه بسوء أو انتقام، فوافقه القائد أشْوَر على ذلك وحذره من مغبة أي نكوص أو تماطل.

كان ذلك الوقت كافيا لجند أدومة من أجل تحضير أسلحتهم الجديدة وإعداد قذائفهم ونصب مجانيقهم ومقالعهم الضخمة وتوجهيها نحو جنود بابل، ولم تكن قذائفهم هذه المرة عبارة عن حجارة أو ركام من الصخور ولكن كانت مقذوفات مُشَكَّلة من آلاف العقارب الصحراوية السامة والأفاعي القاتلة، وبمجرد حلول الظلام أعطى الملك "شنآب" أو امره بإطلاق تلك القذائف بشكل مكثف ومتتالي على جنود بابل بعدما قاموا بتهييجها، فتهاطلت عليهم كمطر السيل من السماء، ولم يفطن البابليون للورطة التي وقعوا فيها إلاّ بعدما أضحت تلك العقارب والأفاعي تنزل على وجوههم وأجسامهم فتلدغهم وتدميهم حتى سرى سمها في أجسادهم وتعالى صراخهم وصعد عويلهم إلى عنان السماء، وساد الهلع والرعب بينهم وزاد الأمر سوء باضطراب الخيل التي ملأ لجبها المكان واشتد هيجانها، وسقط كثير منهم قتلى على الفور وأغمي على عدد أكبر منهم، وحاول من

بقي سالما منهم الفرار وكانوا يركضون في كل اتجاه حتى تشتت جيشهم واختل نظامه وترتيبه، ولم يثبت منهم إلاّ نفر قليل.

لم يستوعب القائد أشْوَر ما أمسى يراه بأم عينه، ولم يكد يستفق من هول صدمته حتى سمع صرير البوابة، فظن أن الأدوميين سيهاجمونهم وصاح في من بقي معه من الجنود ليهرعوا إليهم، وأمرهم بمباغتتهم حال خروجهم والاستماتة في قتالهم لكنهم تفاجئوا بأن أعدائهم هذه المرة لم يكونوا بشرا وإنما أربع تماسيح ضخمة خرجت إليهم من وراء الأبواب لتهاجمهم بعنف وشراسة لم تنفع معها سيوفهم ولا دروعهم، ولما رأى فرس أشْوَر أحد التماسيح قادما نحوه، فإذا به يطلق صهيلا مدويا ويرتفع إلى الأعلى في ذعر واقفا على رجليه الخلفيتين حتى أسقطه عن ظهره وولّى هاربا ليصبح القائد أشْوَر على الفور وجبة دسمة بين فكي تمساح جائع.

أمام هذه المفاجآت المرعبة والمتتالية والتي لم يتوقعها أحد من البابليين لم يبقى أمامهم سوى التراجع و النجاة بأنفسهم، فراحوا يفرون في كل اتجاه، غير أن شنآب أصر ألاّ يفلتهم فأمر جنوده بإطلاق قذائف الحجارة الضخمة من المجانيق باتجاههم، وأن يستهدفوا حتى المعطوبين والمجروحين وكل من بقي حيا منهم فكانت مجزرة دموية لم يعرف لها البابليون مثيلا طيلة حروبهم الطويلة.

استمر الأدوميين في القصف، دون كلل أو تعب، حتى تيقنوا من أن ساحة المعركة أصبحت خالية تماما من أي جندي بابلي، فتوقفوا وانتظروا حتى

بزوغ الفجر، ليفتحوا البوابة ويخرجوا مستلين سيوفهم ومتقلدين دروعهم يتفقدون المكان. كان عدد القتلى كبيرا والدماء تملأ الحفر كالبرك وعظام الموتى مسحوقة تحت الأحجار والجثث متناثرة هنا وهناك، صرخ شنآب في جنوده وطلب منهم ألا يتركوا نشوة الإنتصار تلهيهم عن إتمام ما بقي من حربهم، فأمرهم بجر كل آلات الحصار والمجانيق والدبابات والأسلحة التي خلّفها البابليون وراءهم إلى داخل المدينة، كما استولوا على كل المؤن و عادوا بها سريعا إلى داخل الأسوار متحصنين وراء الأبواب.

عاد من نجا من جيش بابل إلى صبوئيم في حين توجه نفر قليل إلى سدوم وعمورة ليطلعوا القائد كدر لعومر وبلشيم على المصيبة التي حلت بهم، أما أهل أدومة فأغلقوا عليهم أبوابهم ونفخوا أبواقهم وهللوا لنصرهم وهتفوا باسم ملكهم شنآب دون إفراط ولا إخلال بالتحفظ الواجب في مثل هذه الحالات فمازالت حربهم قائمة لم تنتهِ ومازالت للمعارك بقية.

لم يصدق كدر لعومر ما سمعه من جنوده الفارين والمهزومين، ولم يستسغ أن تكون هزيمة جيشه بهذا الشكل الفظيع، كما لم يتقبل أن يخسر ثلث جيشه في معركة واحدة، لم يرفع فيها جنوده سيفا ولم يصيبوا من عدوهم نفسا، فاستشاط غضبا واشتد حنقه وأقسم ألاّ يضع جنبه على فراشه قبل أن ينتقم لهزيمة جيشه من كل أهل أدومة وينكل بملكها ويلقي به حيا كطعام للتماسيح.

على الجانب الآخر كانت مملكة صبوئيم تشهدت أحداثا واضطرابات لم تكن في الحسبان، ذلك أن أهلها لما علموا بمصير القائد أشْوَر وهزيمة جنده في أدومة، ورأو ا بأعينهم فلول الفارين منهم وقد عادوا من حملتهم خائبين مذعورين مجردين من دروعهم وأسلحتهم، انبعثت فيهم الحماسة، خصوصا أولئك المقاتلين الذين أجبروا على قبول الاستسلام ووضعوا أسلحتهم مكرهين، فتعالت أصواتهم ونادوا في الأهالي بالهجوم على المخازن واستعادة أسلحتهم من يد البابليين وقتالهم وطردهم من أرضهم كما فعل الأدوميون، فعددهم بات الآن يسيرا ومعنوياتهم محبطة وشوكتهم منكسرة، ولم يلبث أن استجاب لهذه الدعوة غالبية أهل صبوئيم بعدما باركها الكهنة وشجعوهم عليها. أمام وضع كهذا لم يكن أمام جند بابل المرابطين هناك إلاّ ان تركوا مواقعهم واقتصروا على ضرب الطوق على مخازن السلاح لحمايتها ومنع المتمردين من الوصول إليها.

أدرك أهل صبوئيم أنها فرصتهم الوحيدة والثمينة والتي لن تتكرر للانعتاق من ذل البابليين والتخلص من قبضتهم، فانطلقوا مندفعين نحو مخازن السلاح حتى كادوا ينجحوا في اقتحامها بل وباتوا أقرب إلى ذلك، خصوصا وأن جنود بابل قد خارت قواهم وبدأوا يتزحزحون ويتراجعون إلى الخلف. لكن في غمرة تلك الأحداث المتسارعة وقع ما لم يكن في الحسبان، إنه القائد بلشيم يقتحم بجيشه أبواب المدينة، ويدخلها عليهم حاملا إليهم

الموت على سن سيفه وحوافر خيله، جاء لينقذ جنود بابل من ورطتهم ويعيد استتباب الأمن ويقمع هذا التمرد الذي انطلقت شرارته.

لم تكن تداعيات مقتل أشْوَر وهزيمته في أدومة لتخفى على قائد متبصر ومحنك مثل بلشيم فقد أيقن أن تلك الهزيمة ستبعث ولا شك نار الانتقام والتمرد في كل الممالك وأولها صبوئيم التي باتت خالية ممن يحفظها اللّٰهُمَّ ذلك النفر القليل من الجند، فما كان منه إلاّ أن قرر التحرك نحوها بسرعة بعدما قسم جيشه إلى قسمين ، ترك نصفه الأول في عمورة ، وخرج في نصف الجيش الثاني حتى يحول دون خروجها عن سيطرتهم، ويبدوا أن قراره كان صائبا إلى حد كبير، فقد صدقت توقعاته وهاهي نار العصيان والتمرد كادت أن تحرق جنودهم المرابطين هناك، ولن تلبث أن تنتقل إلى باقي الممالك لولم يقم بإخمادها ووأدها في مهدها.

نَفَّذَ بلشيم مجزرة رهيبة، في أهل صبوئيم وجمع فيها بين المتمردين وغيرهم فكانت أكثر بشاعة من كل المجازر التي نفذها من قبل، ولم تتوان سيوفه وسيوف قواته في حصد كل من وجدوه أمامهم من الرجال بمن فيهم الكهنة ولم يستثنوا أحدا، قتلوا كل من رأو ا فيه أنه يستطيع أن يحمل سيفا أو يرفع سلاحا وكأن الأمر يتعلق بإبادة جماعية وليس بقمع تمرد.

استعاد البابليون سيطرتهم مجددا على صبوئيم وأحكموا قبضتهم عليها لكن هذه المرة دون أن يتركوا لمن بقي من أهلها أي أمل في الانعتاق، فقد قتلوا كل الرجال ولم يتركوا سوى الأطفال والنساء.

أرسل بلشيم مع بعض رجاله إلى كدر لعومر يخبره بتمرد صبوئيم وَوَقْعَتِهِ في أهلها، وكيف أنه استعاد السيطرة عليها ونكَّل بأهلها، وألحق بهم عذابه الشديد واستأذنه للخروج إلى أدومة كي يخضعها ويثأر من أهلها ومَلِكها لما فعلوه بجيشهم وبالقائد أشْوَر، ورغم أن كدر لعومر استحسن كثيرا خروج بلشيم إلى صبوئيم وابتهج بما فعله بأهلها وأثنى على فطنته وسرعة بديهته، إلاّ أنه رفض ان يأذن له بالخروج إلى أدومة وطلب منه التريث حتى يرى رأيا في كيفية مواجهة سلاحهم الجديد الذي لم يحسبوا له حسابا، وحتى لا يقعوا في نفس الفخ مرة ثانية، وآثر عدم التسرع مفضلا التأني حتى يعد العدة والخطة اللازمتين لذلك، فهولا يعرف أي مفاجئة جديدة يمكن أن يكون قد خبأها لهم الملك شنآب.

استدعى كدر لعومر كل الجنود الذين نجوا من مذبحة الأدوميين، وطلب منهم أن يعيدوا على مسامعه تفاصيل ما وقع بالضبط وألا يغفلوا صغيرة ولا كبيرة، فكل شيء مهما بدا لهم بسيطا وتافها قد يكون له تأثير كبير على الأحداث وأبسط تفصيل قد يغير كل شيء، فحكوا له كل ما وقع بين قائدهم أشْوَر وبين شنآب ملك أدومة وكيف استدرجه ومكر به ليمطرهم قصفا بالأفاعي والعقارب السامة على حين غرة، وكيف فتح لهم البوابة وأطلق عليهم تماسيح ضخمة هاجمتهم تحت جنح الظلام، وأعقبهم بوابل من القذائف الحجرية هرست عظام من بقي حيا منهم على أرض المعركة.

عرف كدر لعومر أن أشْوَر ذهب ضحية سوء تقديره لقدرات ملك أدومة، الذي كان دهاؤه شديدا ومكره أقوى بكثير من عديدهم وعتادهم، لذلك بات عليهم الآن الاحتياط له والاعداد الجيد لمواجهته فلا أحد يتوقع مالذي يمكن أن يفاجئهم به هذه المرة.

كان أول وأكبر تحدي يواجهه كدر لعومر في حربه مع شنآب هو إيجاد طريقة لتفادي لسعات العقارب والأفاعي، فرغم خبرته الطويلة بالحرب إلاّ أنه أبدا لم يواجه هذا السلاح الفتاك، ورأى أن يستعين ببعض أهل سدوم وحتى عمورة والممالك الاخرى التي تحت يديه عساه يجد في أهلها من يدله على طريقة تحميه وتحمي قواته من خطر هذا السلاح الفتاك، فبعث جنوده يبحثون ويسألون لكن دون أن يحصلوا على جواب، ورغم أنه استعمل أساليب الترغيب تارة والترهيب والتهديد تارات أخرى إلاّ أنه لم يحظ أبدا بما يشفي صدره، لأن الأهالي بدورهم لم يعرفوا ولم يواجهوا حربا من قبل استُعمِل فيها مثل هذا السلاح، وهم أهل مدنية وتحضر ولا خبرة لهم بهوام البر وطرق القضاء عليها أو تجنبها.

عجز كدر لعومر ومساعديه وكل قادته أن يجدوا حلا لهذه المعضلة التي باتت تواجههم حتى دب اليأس إلى نفوسهم، وكان أكثر ما يحرجهم ويؤرقهم هو مرور الوقت وهم يراوحون مكانهم دون أن يتمكنوا من التحرك والانتقام لهزيمتهم القاسية حتى شاع الخبر بين أهالي المدن وباتوا يتناقلونه سرا وعلنا بينهم، ويتحدثون بإعجاب عن الملك شنآب باعتباره الوحيد

الذي تمكن من مواجهة البابليين وردهم عن أرضه ومملكته، بل وأضحوا يمنون النفس برؤيته قادما إليهم في جيشه ليخلصهم، ويحرر أراضيهم ومدنهم من الاحتلال البابلي.

ككل سكان سدوم وصل الخبر إلى آبيثار الذي كان يقبع في زنزانته منتظرا مصيره الذي لم يتحدد بعد، سمع بأن كدر لعومر قد أعجزه أن يجد حلاّ لهجوم العقارب والأفاعي فضلا عن التماسيح التي أتى بها ملك أدومة من مصر، وأن هذا الأمر قد سبب له ولمساعديه وقادة جنده حالة من الإحباط والقلق الكبيرين، لدرجة أنه بات يعرض مكافآت مجزية على من يجد له الحل لهذه المعضلة. كان آبيثار ابن الصحراء والبر خبيرا في التعامل مع هذا النوع من الزواحف، فكثيرا ما كان يصادفها وهو يعمل في الأرض أو عندما يخرج للصيد في الصحراء، فيحسن طردها والوقاية منها وذلك بفضل طريقة سهلة وبسيطة تعلمها من أبيه وربما جاء الوقت لكي يستنجد بحكمة الرجل الصالح مرة أخرى عساها تنجيه من ورطته هذه وتستنقذه من سجنه.

أحس آبيثار بفرح صغير يتسلل إلى قلبه، وخامره إحساس بالأمل في الانعتاق من ذل الأسر والعبودية، فهو الوحيد الذي ربما يملك الحل الذي سيخرج كدر لعومر من حيرته ويخرجه من ورطته، ولن يمانع هذا الأخير أبدا في أن يكافئه على صنيعه بأن يحرره ويطلق سراحه ويسمح له بالعودة مع ابنه إلى أرضه، وانتظر قدوم الحارس المكلف بإطعام السجناء، فأسر له

أنه يريد لقاء القائد وأن لديه الحل لمشكلته المستعصية. لم يتأخر الحارس بل سار به على الفور إلى قائده كدر لعومر واخبره بالأمر، كانت تقاسيم الضيق مرتسمة باستمرار على محياه، وما إن سمع بزعم آبيثار حتى أمر بإدخاله سريعا ودون تردد، آملا في أن يجد عنده حقا حلا يمكّنه أخيرا من تجاوز سلاح العقارب والأفاعي السامة.

دخل آبيثار مُصَفَّد اليدين على كدر لعومر فقرأ في عينيه الحيرة والترقب، رغم تقاسيم وجهه الصارمة لكنها كانت توحي بأن ثقلا ما يجثم عليه أخذ كدر لعومر مجلسه وخاطبه قائلا: هيا هات ما عندك وأرجو ألاّ تكون مدّعيا فالأمر لن يحتمل أكثر من ضرب عنقك.

- عفوك سيدي أنا لا أدَّعي شيئا، هي فقط أمور تعلمتها من والدي الحكيم نازر خلال عيشنا لسنين طويلة في الصحراء وكنت أودّ عرضها عليكم عسى أن تجدوا فيها ما يعينكم (ردّ أبيثار في ثقة).

- كدر لعومر: تكلم بسرعة.

-آبيثار: عند بداية استيطاننا للصحراء، كان والدي كثيرا ما يخرج للعمل في الأرض يُقلِّبها ويشق السواقي أو يبني لنا حجرات أو حظائر للحيوانات، وكان يصطحبني وأخي معه، وبما أننا كنا لازلنا يافعين فقد كان يخشى علينا من لسعات العقارب السامة التي تكثر بشدة في الصحراء، فكان يلبسنا لباسا جلديا من قطعة واحدة يغطي كامل جسدينا من الرأس وحتى القدمين، وكان يصنع تلك الألبسة بنفسه من جلود التيوس التي يذبحها،

حيث لا تقدر إبر العقارب على اختراقها وبالتالي لا تصل إلينا، وأما المكان الذي ننام فيه فقد كان يحيطه بالقار، أو الكبريت لأن العقارب والأفاعي والزواحف السامة عموما لا تتحمل رائحتهما وتفر بعيدا عنها لأنها تصيبها بالخمول ولا تقوى على مهاجمتنا.

ظهر البشر أخيرا على وجه كدر لعومر، ونقَّل نظره بين مستشاريه وبين آبيثار وطلب من الحارس أن يفك قيوده، ثم قال له :

- إذا كان ما تقوله صحيحا، فلك عندي ما يسرك.

أجابه آبيثار متحمسا ومستبشرا : طبعا سيدي، كما أقترح أيضا أن تستعينوا بالدروع الحديدية الموجودة في مخازن المعبد، وأن تأمروا الجند بطلاء وجوههم وأيديهم بالقطران (القار)، وكذلك أرض المعركة يجب أن تغمروها بالقطران، وهو متوفر بأكثر من اللازم في عمق السديم، هكذا ستأمنون هجوم العقارب السامة والأفاعي أيضا حتى لو ألقيت عليكم وتتفرغون للقتال.

على الفور أمر كدر لعومر مستشاريه بأن يسهروا على صناعة ملابس جلدية من قطعة واحدة تكفي لخمس مائة جندي، مستعينين في ذلك بمخزون السدوميين والعموريين من الجلود كما أرسل كتيبة لجلب كميات كبيرة من القطران من عمق السديم الذي يبعد بمسيرة بضعة أيام عن سدوم.

على الجانب الآخر في صبوئيم كان القائد بلشيم قد أرسل عيونه لتستكشف مكان وأرض المعركة، فأخبره رجاله أن الأدوميين لا زالوا مستنفرين ومتحصنين وراء أبوابهم وأسوارهم، كما نقلوا إليه أيضا أنهم استولوا على كل آلات الحصار والقصف التي خلفها رجال أشْوَر وراءهم ، وحرقوا خيامهم، واستحوذوا على كل المؤن والمتاع من غذاء وأغطية ولم يتركوا شيئا أبدا. فما كان منه بعدما سمعه إلاّ أن طلب من جنوده الذهاب إلى عمورة فلا يزال بمخازنها عتاد وعدة بالقدر الكافي، خصوصا الدروع الحديدية وآلات الحصار وقاذفات الأحجار الضخمة والمجانيق ، وطلب منهم إعدادها وإصلاحها وتحضيرها مع كل ما سيحتاجه الجيش للمعركة القادمة التي يجب أن تكون حاسمة وفاصلة.

انقضت عشرة أيام كاملة استطاعت قوات كدر لعومر أن تتجهز فيها بكل ما يلزم من الدروع الحديدية وألبسة جلدية من قطعة واحدة تكفي لكتيبة مؤلفة من أكثر من خمس مائة جندي، كما استعانوا بآلات الحرب اللازمة لفك الحصار والقصف من بعيد ، فأخذوا ما يكفي حاجتهم من مخازن عمورة وساروا في عشرة آلاف مقاتل قاصدين أدومة من جديد.

الفصل الرابع عشر: ساعة الحقيقة

خرج جيش بابل من سدوم يتقدمه كدر لعومر والتقى بالقائد بلشيم عند مفترق الطرق بين الممالك واتفقا على أن يقوم كدر لعومر بالهجوم على أدومة فيما يبقى بلشيم في خمسة آلاف مقاتل يحفظ بقية الممالك ويقمع أي محاولة للعصيان أو التمرد.

كانت الكتيبة الأولى من جيش كدر لعومر متكونة من حوالي ستمائة مقاتل من المشاة، خمس مائة منهم يلبسون الواقيات الجلدية المضمخة بالقطران، والمائة الباقية فكانوا يلبسون الدروع الحديدية، ويحملون برامل القطران ليغمروا بها الأرض التي سيعسكرون بها وبما أن صاحب فكرة الدروع الجلدية والقطران كان هو آبيثار فحضوره مع الجيش كان ضروريا، لم يمانع بدوره أن يشارك في المعركة بل ويقاتل مع قوات كدر لعومر أملا في أن يشفع له ذلك عند هذا الأخير ويسمح له بالرحيل مع ابنه إلى أرض نازر.

وصلت الكتيبة الأولى إلى تخوم أدومة مع ساعات الصباح الأولى حرص كدر لعومر أن يبدأ القتال مبكرا ليتجنب حلول الظلام فقد علّمته الحرب أن الليل دائما ما يأتي بالمفاجآت غير السارة.

بادرت القوات بنصب المجانيق وآلات الحصار وقاذفات الحمم والصخور، كانت الصفوف الأمامية كلها من المشاة فيما بقي الفرسان في الصفوف الخلفية، ليتفادوا أي اضطراب قد يحصل للخيول عند قصفهم بالعقارب والأفاعي، وحتى لا يقع لهم ما وقع لجيش بلشيم من جلبة وفوضى وتسيب.
كان الأدوميون فوق أسوار مدينتهم يترقبون حضورهم، وقد أعدوا لهم ما بقي لديهم من مخزون العقارب والأفاعي، وبمجرد رؤيتهم يعسكرون، أمر شنآب بقصفهم بسلاحه المبتكر، وبدأ سيل العقارب والأفاعي يهطل عليهم كالمطر من السماء، لكن هذه المرة لم تكن كسابقتها، فقد تحصن البابليون داخل ألبستهم الجلدية السميكة ونجحت سيول القطران في جعل الأفاعي والعقارب تختنق وتبارح المكان بمجرد سقوطها على الأرض دون أن تقدر على إلحاق الأذى بهم. تفاجأ الأدوميون بثبات قوات بابل وبعجز العقارب السامة والأفاعي عن مهاجمتهم، وعكس المرة الماضية، لم يهرب أحد من البابليين وثبتوا في أماكنهم ولم تحدث فيهم الفوضى أو الجلبة، كان هذا الأمر كفيلا بزعزعة ثقة الأدوميين في أنفسهم وبث الشك إليهم، وما هي إلاّ ثوان قليلا حتى بدأت قوات كدر لعومر تقصف البوابة الكبرى والأسوار بالصخور الضخمة وحمم القطران، أحدث هذا الأمر اضطرابا كبيرا في نفس الملك شنآب ولم يعرف كيف يتصرف، فلم يفكر أبدا أن البابليين سيجدون حلاً لسلاحه، ولم يضع خطة بديلة ليلجأ إليها، فوقف مكتوف

اليدين يراقب الوضع، فيما قذائف البابليين تنهال عليه كسفا من كل جانب دون توقف.

أمر كدر لعومر رماة النبل أن يتقدموا بدورهم ويبدؤوا في استهداف جنود أدومة المرابطين على السور ليمنعوهم من مضايقة فرقة مكونة من عشرين جنديا انبرت لنقب البوابة وتكسيرها بواسطة جذع نخلة ضخم، سارت الأمور على أحسن ما يرام وأفضل مما توقعه كدر لعومر وسرعان ما اضطربت جموع الأدوميين وراء أسوارهم وهم يرون قوات بابل تدكها عليهم دكّا.

انخلع الجزء الايمن من البوابة وهوى على الجنود من خلفه، وكان وراءه تمساح ضخم سرعان ما فطن له كدر لعومر فأمر صاحب الدبابة الحجرية باستهداف رأسه بالحجارة الضخمة ، حتى يدميه، نفذ الجندي الأمر على الفور وصب مخزونه من الأحجار الضخمة على التمساح حتى فقأ عينه وهشم جمجمته، وشل حركته، لينقض عليه آبيثار ويعتلي ظهره ثم يغرز سيفه في ظهره حتى انقلب على بطنه ومات وفعلوا ذلك مع تمساح آخر هم بمهاجمتهم. سقطت البوابة في قبضة البابليين، ودخلت قوات كدر لعومر المدينة، ودار قتال عنيف ودموي بين الجيشين، لم يكن أمام الأدوميين سوى الاستماتة والمواجهة، اشتد وطيس المعارك وكان آبيثار كعادته أحد أبطالها، لقد كانت قبضة سيفه لا تنفل وتمكن تحت أنظار كدر لعومر من قتل عشرات الجنود، لدرجة انه كان يقاتل اثنين وثلاثة في نفس الآن،

أثارت حماسته تلك وشراسته فضول كدر لعومر، كأنه رأى هذا المقاتل من قبل، لكن أين؟ استمر القتال سجالا بين الطرفين وسرعان ما مالت الكفة للبابليين، لم ينفك كدر لعومر يراقب آبيثار فقد أعجب بشجاعته وطريقته المميزة في القتال كأنه أسد ضاري لا يعرف الخوف، وما لبث أخيرا أن تذكره، نعم إنه هو، لقد سبق وأن شارك ضده في معركة حصون ثامار وقتل عددا كبيرا من رجاله بل وأثخن فيهم بلا رحمة، تسبب هذا الأمر في إغاضة كدر لعومر وإشعال حنقه، ومما زاد في حدة غضبه أن آبيثار لم يذكر له ذلك ولم يعترف له أنه خرج إليه مع القائد رابيم عندما روى له قصته مع أهل سدوم، لكنه على الرغم من ذلك كتم غيضه، ولم يبد له شيئا وصرف تفكيره إلى المعركة والقتال.

توسطت الشمس كبد السماء، وتمكن البابليون من التقدم أكثر حتى فتحوا كل البوابات فدخل باقي الفرسان وغلبوا على جيش أدومة وقتلوا كل قادته، أما الملك شنآب فسرعان ما ألقى سلاحه وحاول الفرار عبر النهر لكن قوات كدر لعومر كانت له بالمرصاد ومنعوا خروج أي سفينة أو زورق، وسادت حالة من الرعب وسط الأهالي وبدأ جنود بابل في تنفيذ مجزرتهم وقتل النساء والرجال والرضع والشيوخ انتقاما لما فعله الأدوميون بزملائهم، فكانت أشد المعارك دموية، وبطشا ورعبا على الإطلاق . خيم الموت على المكان، حاول البعض أن يلوذ بالمعبد لكن ذلك لم يشفع لهم حيث تم ذبحهم جميعا مع كهنتهم دون رحمة، أما كدر لعومر فقد مضى

يبحث عن رجل واحد فقط هو شنآب وقد وعد رجاله بمكافئة مجزية لمن يأتي به حيًّا، هذا الأخير لم يجد من ملجئ أمامه سوى أحد الاسطبلات ليختبئ فيها، وأزال عنه ثيابه وتخلص منها وبقي في سُرَيِّل قصير فقط مع صدرية ولطّخ وجهه ببعض الرّوث كي يموه من يبحث عنه، لكن كل ذلك لم يجدي نفعا، فسرعان ما وجده أحد الجنود الذي دلف الاسطبل ورآه جالسا القرفصاء، منزوٍ في أحد الأركان ترتعد فرائصه وتصطك أسنانه من شدة الرعب، فعرفه بسرعة وألقى عليه القبض واقتاده إلى كدر لعومر في روَثه.

لم تكد شمس الأصيل تميل إلى الغروب، حتى كانت قوات بابل قد أفنت غالبية أهل أدومة ولم تترك منهم سوى بعض النساء والصبايا والعبيد، أما الملك شنآب فقد وضعه كدر لعومر في قفص حديدي مصفد اليدين والرجلين، وأمر رجاله أن يطوفوا به كل ممالك غور الأردن حتى يراه الأهالي ويعرفون مصير من يفكر في التمرد عليه، حتى إذا انتهوا من جولتهم به، أمرهم أن يلقوا به في حوض كبير مع ما بقي من تماسيحه التي أحضرها بعد أن يكونوا قد جوعوها لأيام، لتنهش لحمه حيا انتقاما لما فعله بالقائد أشْوَر.

انتهى كدر لعومر من اخضاع مملكة أدومة بالكامل بعدما نكل بملكها، وقتل غالبية أهلها واستولى على أموالهم وأفرغ خزائنهم واستحوذ على ممتلكاتهم، وسبى نساءهم واستعبد أطفالهم. وأقام على حكمها أحد فرسانه

وترك عنده كتيبة من الجنود ممن آثروا البقاء والاستفراد بتلك المراعي الخصبة، والقصور وفرض عليهم جباية سنوية يؤدونها لخزينة دولتهم في وقتها فوافقوا على ذلك وعاهدوه على الوفاء والسمع والطاعة، أما هو فقد أقفل راجعا منتصرا مع من بقي معه من القوات عائدا إلى سدوم.

كان القائد بلشيم ومعه المئات من الرجال يقفون على مشارف المدينة يترقبون عودة كدر لعومر وجنوده ليحيوهم ويهنؤوهم بانتصارهم المجيد الذي وصلت أخباره مدوية إليهم. وخرج معهم أيضا بعض الأهالي خصوصا من أو لئك الذين انحازوا للبابليين واختاروا مهادنتهم والانصياع لهم إما طمعا في عطاياهم أو رهبة من سيوفهم، وبمجرد ظهور أولى طلائع الجيش بدأت أهازيج الفرح ترتفع في السماء فرحا بمقدمهم، وما لبث ان اختلط الجنود ببعضهم يتبادلون التحايا والأحضان، ويباركون لبعضهم انتصارهم الساحق.

دخل كدر لعومر إلى المدينة منتشيا ومزهوا بما حققه، ولم يعد أمامه سوى وضع اللمسات الأخيرة على حملته بتعيين حكام بابليين على بقية الممالك التي احتلها والنظر في أمور الجباية والجزية التي سيفرضها عليهم، وإلى غير ذلك من أمور الحكم وشؤون السياسة.

أما آبيثار فلم يكن يشغل باله سوى شيء واحد وهو العودة إلى أرض نازر مصطحبا معه ابنه، لقد كان ينتظر الفرصة المناسبة ليحدث كدر لعومر مرة أخرى بهذا الشأن، بعدما حاول أن ذلك مرارا خلال رحلة عودتهم من

أدومة دون أن يظفر منه بجواب، كان يتساءل مع نفسه "ترى هل يكون كدر لعومر قد غير رأيه؟ هل يضمر له شرا؟"، ثم يعود ويقول لنفسه: "مستحيل لقد أبليت معه البلاء الحسن ولا بد أن يكون جزاء الإحسان هو الإحسان".

لما وصل كدر لعومر إلى بلاطه، ومعه كبار الفرسان وقادة الجيش، وجد مفاجئة جميلة بانتظاره، فقد كان القائد بلشيم قد أعدّ وليمة كبيرة له ولكبار جنده فيها ما لذ وطاب من الطعام والنبيذ وأحضر لهم مجموعة من القيان وبعض الإماء والجواري من حسناوات سدوم ليقمن على خدمتهم وتطرية الجو لهم، بعدما انهكوا أنفسهم لأسابيع طويلة في خوض المعارك والحروب ، والآن وقد انتصروا فلا بأس من بعض الترفيه عن النفس، فهم يستحقون ذلك.

انشغل الجميع بالحفل الذي أقامه بلشيم لقائده وزملائه، وساد جو من الهدوء في باقي المملكة، فقط آبيثار وحده كان قلقا ومتوترا، فلم يكن مرتاحا أبدا لنظرات كدر لعومر وارتاب من طريقة كلامه ونظراته الغامضة، شيء ما بداخله كان يقول له أنه لن يسمح له بالخروج من سدوم، وعليه أن ينتظر منه الأسوأ.

انتصف الليل وأحياء سدوم وأزقتها غارقة في صمتها وهدوئها وفارغة إلا من حراسها، الكل كان يلازم بيته، بينما كدر لعومر وكبار قادة الجيش مجتمعين في البلاط يواصلون سهرتهم واحتفالهم.

كان آبيثار منشغل البال يفكر بمصيره، لم يُسمح له بحضور الحفل فقد اقتصر على كبار القادة والفرسان، لكنه نال حظه من الطعام الدسم والشراب كسائر الجند، ولم يكن حضور الحفل يغريه أو يشغل باله فذلك آخر ما يفكر فيه، لكنه كان جالسا على صخرة يراقب البلاط من بعيد، مشاعل النار تقدح داخله وتضيء ردهاته وغرفه ونوافذه، خطرت له فكرة مجنونة جعلته يقفز من مكانه ويتوجه صوب البلاط مباشرة، استوقفه الحارس فأخبره أن كدر لعومر هو من أرسل في طلبه، لم يشكك الحارس في كلامه، فقد رآه مرارا يتردد عليه وقد حارب معهم وربما صار محل ثقتهم أيضا، انسل إلى القصر وبخفة بالغة سار في ردهاته فهو يعرفها تماما أكثر من غيره، ووصل أخيرا إلى جناح السبايا، بعدما علم آنفا أن حورانة تقيم هناك مع طفله، بحث عنها، فوجدها نائمة بجوار أمها ومعها ابنه ياكين حاول أن يأخذه من حضنها لكنها استفاقت مذعورة، وما إن لمحته حتى سكن روعها ظنت أنه جاء ليأخذها هي وابنه، ولكي لا يثير انتباه أحد طلب منها أن تتبعه في هدوء، ففعلت. سارت معه ودخلا إلى ردهة مظلمة، لطالما كانت تنتظر هذه اللحظة التي يأتي إليها فيها وينقذها من جحيم الأسر الذي تعيشه، لم تدرك أنها سقطت تماما من حساباته إلاّ عندما طلب منها أن تعطيه ياكين وأخبرها أنه عزم على الخروج الآن من سدوم سألته مستغربة:

- تخرج لوحدك؟ هل تريد ان تأخذ مني ولدي وتتركني هنا أسيرة؟

أجابها أنها سبق وفعلت ما هو أفظع فقد تركتهم يقتادونه أسيرا بينما ارتمت هي طائعة في أحضان بارع .

ثم سألته مستغربة ومستعطفة: أنا الآن أسيرة هل تترك زوجتك وأم ابنك اسيرة وتهرب؟

- أجابها: لم تعودي زوجتي هل نسيت إنه حكمك وحكم إلهك بعل الذي باركته أمك الكاهنة العظيمة، بإمكانك أن تسأليها.

حاولت أن تستميله بغنجها وتدللها كما كانت تفعل معه دائما، لكن ذلك لم يعد يجدي، ربما لم تعد تحسنه أو أن الزمان والمكان لم يسعفانها، أرادت أن تقنعه بأن يصطحبها معه لكي لا يكبر ابنهما يتيما، لكنه كانا حازما في رفضه وحاسما في قراره، انتزعه منها بالقوة، حاولت أن تستغيث بالحراس وتثير ضجة لكنها ما إن بدأت بالصراخ حتى استل سيفه وضربها ضربة قوية بعقبه على رأسها، اخرستها وكتمت صرختها، لم يكن ينوي قتلها، لكن قوة الضربة جعلتها تهوي جثة هامدة في الحال.

انتبه الحراس بعدما سمعوا صرخة حورانة المكتومة، فاتجهوا بسرعة ناحية الصوت ليجدوا آبيثار حاملا ابنه ويهم بالخروج. اعتقلوه ثانية وألقوا به إلى زنزانته وهو يندب حظه، ويشتم الأقدار التي دائما ما تضع حورانة في طريقه، كأنها لعنة تلاحقه لتكون دائما سبب مصائبه وستكون هذه المرة سبب مصرعه لا محالة.

لم يتأخر الفجر كثيرا، وخلد كدر لعومر لنومه، ولم يستفق إلاّ بعدما انتصف النهار، مزاجه كان رائقا بعد احتفال ليلة أمس، استعاد نشاطه وحيويته سريعا، تناول إفطاره وطلب من حراسه أن يحضروا له آبيثار بعدما علم بفعلته.

كان الحارس الذي اقتاد آبيثار من سجنه إلى بلاط الحاكم يقرعه طوال الطريق ويتهكم عليه، سأله بسخرية إن كان يفضل الموت على المقصلة أم في حوض التماسيح، فهي طريقة موت الملوك على كل حال. لكن آبيثار لم يأبه لكلامه ولم يكلف نفسه عناء الرد، حتى وقف بين يدي كدر لعومر رافعا رأسه ولا تظهر عليه سمات الخوف، أو الندم، أثار هذا الموقف سخرية كدر لعومر واستغرابه، وما فتئ أن صرخ فيه:

- بحق الآلهة ما الذي كنت تنوي فعله بالأمس أيها الوغد ألا يكفيك أنك لا زلت تحتفظ برأسك فوق كتفيك حتى الآن؟

- آبيثار : لا شيء أبدا سيدي فقط حاولت رؤية ابني لقد مضى وقت طويل دون أن أراه لكن أمه رفضت ذلك فأخذته منها عنوة.

- كدر لعومر : حسنا ماذا تظن أني سأفعل بك الآن وقد قتلت نفسا، في ملك دولة بابل؟ أتظن أن فعلتك ستمر دون عقاب؟

- آبيثار: عفوك سيدي لم أكن أقصد قتلها، ولم أكن أعتقد أن ضربة خفيفة على رأسها ستراديها قتيلة، أنا ألتمس عفوكم.

أطرق كدر لعومر صامتا للحظات، ثم سأل مستشاره:

- كم دية جارية مملوكة في عرف البابليين؟

أجابه المستشار أن آبيثار لا يزال بدوره عبدا مملوكا لدولة بابل وبالتالي فحياته مقابل حياة ضحيته، وإلا فعليه دفع ألف قطعة ذهبية ثمنا لحريته ودية الجارية التي قتلها.

التفت كدر لعومر ناحية آبيثار وسأله: ها قد سمعت فما رأيك؟ آبيثار متسائلا: ومن أين لي يا سيدي ألف قطعة ذهبية؟ أنا لا أملك هذا المبلغ، وإني أطمع أن يشفع لي بلائي معكم في حرب الأدوميين، فإني حاربت إلى جانبكم ولم أدخر جهدا في نصرتكم بالرأي والسيف، كما أنكم وعدتموني بأنكم ستكافونني على ذلك.

جلس كدر لعومر على كرسيه وأخذ يحدق في آبيثار بنظرات جعلته يرتبك، ثم قال له:

- لماذا لم تخبرني أنك قاتلت جيشنا في معركة ثامار إلى جانب جيش سدوم؟ هل ظننت أنك تخدعني أم ماذا؟

تفاجأ آبيثار بسؤال كدر لعومر فهو كان يظن أن إحجامه عن قول الحقيقة كاملة سيسهل من مأموريته، لكن أمره انكشف الآن وبات موقفه في غاية الحرج، وأجابه:

- لن يغيب عنكم سيدي أني كنت في حكم المملوك لدى بارع وقد أخرجني قائد جيشه رابيم معه مرغمًا وإن كنت قاتلت معهم فقط كي لا

أقتل، وما أخفيت الأمر عنكم لرغبتي في خداعكم سيدي ولكني خشيت أن تأخذونني بمن قتلت من قواتكم.

- كدر لعومر: حسنا لننسى هذا الأمر الآن، وانس أنك ساعدتنا في حربنا على الأدوميين أيضا فهذا مقابل ذاك، لكن عليك أن تدفع دية قتلك لأمة مملوكة لنا، ودية خلاصك أيضا وقد قررنا أن تكون مضاعفة.

آبيثار متسائلا : ومن أين لي بالمال يا سيدي ؟ لم أعد أملك شيئا .

-كدر لعومر: ألم تخبرني أن لكم أرضا في الصحراء، تفيئ عليكم بالخير العميم والمال الوفير إذن لديك ما تملكه.

وقبل أن ينبس آبيثار بكلمة قاطعه كدر لعومر بحزم مستطردا:

- سأدعك تخرج إلى أرضك وسأرسل معك كتيبة من الجيش لتأتيني بالمال، هذا إذا كنت صادقا في زعمك، فأنا بت أشك في أمرك كله. حاول آبيثار أن يعترض عبثا لكن كدر لعومر منعه من الكلام وصاح فيه :- "قُضي الأمر ستخرج من فورك الآن، أما ولدك فقد صار من أملاك المعبد حتى تعود إلينا بالمال، ثم أمر الحراس أن يأخذوه خارجا ولا يراه أبدا بعد اليوم.

أدرك آبيثار أنه وقع ضحية ثقته بكدر لعومر وأنه يضمر له الشر ولا يريد منه ألف قطعة ذهبية فقط، وإنما يريد أن يغير على أرضه وأرض أبيه ويسلبهم كل ممتلكاتهم ويقتلهم تماما كما فعل بأهل المدائن، لكنه عزم أمره ألاّ يتركه يفعل، وقرّر أن يتوه بهم ويتوغل في الصحراء حتى ييأسوا منه

أويقتلوه، فهذه التضحية باتت واجبة لكي يحفظ أرض والده وأهله من بطش البابليين.

الفصل الخامس عشر: طريق العودة الشاق

أوشك فصل الخريف على نهايته، وهاهو كانون الأول يطرق الأبواب حاملا معه برد الشتاء وأمطاره، كان كدر لعومر قد انتهى من أمر الممالك التي احتلها، بعدما أحكم سيطرته عليها وعلى طرق التجارة في الشرق كله، وغنم أموالا كثيرة من الذهب والفضة، حتى ناءت مطاياه بحملها، وكان آخر ما قام به هو وضع بعض قادة جيشه الذين خرجوا معه على رأس تلك المدن وفرض على أهلها جزية سنوية يدفعونها لدولة بابل، مقابل استمرارهم في استغلال أراضيهم ومزارعهم وكان من أهم ما قرره أيضا، هو تدمير كل تماثيل الإله بعل وأعلن ملاحقة كل من يعبده أو يدين بدينه ولو بشكل سري ،وكل من خالف ذلك تزهق روحه، وأعلن قيامة دين الإله "شمش" إلٰه البابليين وفرض عبادته على أهل تلك المدن كلها، وجعلهم يقدسونه ويرفعون اسمه ودينه في معابدهم التي عيّن عليها كهنة بابليين يعلمون الناس دينهم الجديد ويأخذون منهم العطايا والهدايا والقرابين. فعل هذا كله دون أن يجرؤ أحد على فتح فمه أو رفع صوته بالرفض أو الاحتجاج لأن مقصلته المسنونة لم تكن تفتر عن ضرب أعناقهم واحدا تلو الآخر حتى كاد يفنيهم عن بكرة أبيهم.

اختار القائد بلشيم أن يستقر بـأرض سدوم وأن يقيم فيها بقية حياته، ووافقه كدر لعومر بل وشجّعه على ذلك، وعيّنه حاكما عليها ومشرفا عاما على ممالك الوادي كلها، فهو محل ثقة ولا شك في ولاءه، ويظل أحق وأجدر من يحفظ للبابليين سلطانهم عليها.

في هذه الأثناء كان قائد بابلي آخر يدعى سوكر ومعه كتيبة من الجنود يتوغلون جنوبا في الصحراء ومعهم آبيثار خرجوا قاصدين أرض نازر المباركة، لكن لا شيء يوحي بأن هناك أرض بها واحات ومياه ومروج ومراعي كما أخبرهم آبيثار، وقد شارف مخزونهم من المياه والغذاء أن ينفذ، وبدأ الشك يساورهم في أنه كاذب ومراوغ، بدليل أنهم لم يروا أي أثر للحياة بتلك الصحراء القاحلة الممتدة ولم يصادفوا في طريقهم أية قافلة ولا أثر لقدم أو حافر .كان آبيثار مقتنعا في قرارة نفسه أنه لن يُسلِّم أهله وأرض أبيه للأعداء ولو كان في ذلك موته، فإذا كانت الأقدار قد حكمت عليه بأن يدفع ثمن خروجه من أرضه، ونقض عهد أبيه، فالعدل يقتضي أن يدفعه لوحده وألاّ يعرض مصير عائلته وعشيرته كلها للخطر، لذلك فقد تقصَّد أن يسلك بهم طريقا مغايرا، حتى توغلوا جنوبا في صحراء معان بعيدا عن صحراء النقب وراء وادي عربة، ويبدو أن خطته قد نجحت، فمع نهاية اليوم العاشر، دبّ اليأس إلى نفس سوكر وكتيبته، ويئسوا من أن يجدوا تلك الأرض المزعومة، وكان كدر لعومر قد أمره بأن يُغير على تلك الأرض إن وجدها وأن يقتل كل رجالها بمن فيهم أبيثار ويسبي نساءهم و

يعود له بأموالهم و ثرواتهم وكل ممتلكاتهم، وأما وقد تبين أن لا شيء من ذلك حصل فلا مناص من قتل آبيثار أو الإلقاء به فريسة لوحوش القفار، ويبدو أنه حان الوقت لذلك، حيث قام سوكر بمباغتته بضربة أسقطته من على ناقته، صارخا في وجهه:

- هل ما زلت مصرا على الكذب بعد كل هذا الوقت؟

- آبيثار مستنكرا : لماذا تفترض اني كذبت عليكم، أنا مثلكم أضعت الطريق بل لا أتذكره .

سوكر: الآن تدعي أنك أضعت الطريق أيها الوغد؟ حسنا سنتركك تتذكره لوحدك وعلى مهلك، لكن لن نترك لك ماءً ولا زادا ولا حتى راحلة، حتى تموت جوعا وعطشا أو تكون طعاما للضباع.

ثم أمر جنوده فأخذوا منه قربة الماء وجراب الطعام وساقوا ناقته معهم أيضا وأطلقوا العنان لحوافر مطاياهم عائدين من حيث أتوا. بقي آبيثار وحيدا في فيافي الصحراء يواجه مصيره بدون ماء ولا طعام، اختار أن يواصل مسيرته وألاّ يستسلم للموت، مستعينا في ذلك بجَلَدِه وقوة احتماله، وخبرته بطرق الصحراء.

تمكن من تحديد موقعه والطريق الذي يتوجب عليه أن يسير فيه اعتمادا على النجوم، وسار غربا باتجاه وادي عربة محاولا الوصول إلى أقرب طريق لملتقى القوافل التجارية.

مر يومان ونصف ولا زال آبيثار يقطع الصحراء مشيا على الأقدام، كانت أموره ستكون أحسن لو كان معه بعض الزاد وبعض الماء، لكن يبدو أن مشواره سيتوقف هنا بعدما لم يعد يفصله عن مقصده سوى مسيرة يوم أو أقل فعطشه كان شديدا وقواه كانت خائرة، حتى أن بصره أصبح زائغا ولا يكاد يرى أمامه. انتابته حالة هذيان وحمى ثم سقط أرضا مغشيا عليه فاقدا الوعي.

من حسن الحظ أو من تدبير الأقدار أن قافلة كانت قادمة من آرام دمشق ومتجهة إلى مصر، أضاعت طريقها بسبب عاصفة رملية فانحرفت قليلا إلى الشرق، وكان دليل تلك القافلة خبيرا بالصحراء وطرقها، فآثر أن تستمر القافلة في طريقها حتى موضع يقال له تل الوادي، ثم يقطعون وادي عربة غربا، وبينما هم ماضون في طريقهم إذا ببعض كلابهم قد هرعت إلى المكان الذي سقط فيه آبيثار وشرعت في النباح بشكل حاد حتى لفتت إليها الانتباه.

"إنه ميت؟ لا ، لا، إنه لا زال يتنفس، هيا هيا احملوه" كانت هذه الكلمات تتناهى إلى أسماع آبيثار دون أن يفسرها أو يدرك ما هيتها، لم يشعر بنفسه إلاّ وعروقه قد ابتلت بالماء ومعدته اليابسة قد اضحت رطبة لقد أنقذه أصحاب القافلة، وسقوه ماءً، حاولوا إيقاظه وإطعامه لكنه كان متعبا جدا فلم يستطع، ثم حملوه معهم وقطعوا به وادي عربة إلى أن وصلوا ملتقى

القوافل حيث تعرف عليه هناك رجل يدعى توما وهو أحد التجار الذين يقطعون الصحراء، سبق وأن حلّ ضيفا على أبيه، وكان صديقا وفيا لأخيه.

استطاع آبيثار أن يفتح عينيه أخيرا، كانت الرؤية ضبابية ومشتتة لمح بعض الوجوه متحلقة حوله حاول أن يتفحصها كأنه يعرفها، بل يعرفها جيدا، من يا ترى هذا الرجل ذي اللحية البيضاء، وجهه أبيض ومنير كالبدر، ومن هذه المرأة التي تضع يدها على جبينه، ثم ما لبث أن سمع صوتا يقول له: حمدا للرب على سلامتك يا أخي.

ماذا، لقد سمع صوت أخيه آرميا أيضا، حاول أن يتأكد مما يجري حوله، تساءل بصوت متهدج : من أنتم، و أين أنا؟

أجابه آرميا أنت في بيت أبيك نازر يا أخي وهاته زوجتك أديفا وتلك عادينا وهؤلاء أبناؤك يحيطون بك، وأنا أخوك آرميا، أنت بخير الآن فقط استرح ولا تجهد نفسك.

لم يصدق آبيثار ما سمعته أذنيه، هل حقا عاد إلى أرض أبيه؟ هل نجا من الموت؟ حاول أن يفتح عينيه جيدا، ويتذكر ما حدث له لكن الصداع كان يشق رأسه إلى نصفين، علِم من أخيه، أن أحد التجار الذي اعتاد زيارتهم، واسمه توما هو من أتى به إليهم بعدما حملته قافلة من وسط الصحراء، فحمد الله وشكره لأنه كتب له ألا يموت حتى يرى أخوه وأبناءه وزوجتيه ويطلب منهم الصفح والعفو على ما كان منه تجاههم وتجاه أمه. ثم سأل عن والدته راهين:

- أين أمي لماذا ليست هنا ؟

لم يجبه أحد على سؤاله، فقط أصغر أبناءه قال له بعفوية الأطفال أنها ذهبت للقاء جده نازر في السماء، ففهم آبيثار أنها توفيت، وسالت دموعه غزيرة في صمت من حسرته عليها، حتى رقت له قلوب كل الحاضرين بمن فيهم آرميا الذي أمسك على يديه بحرارة.

مرت أيام ليست بالقليلة على عودة آبيثار لأرض أبيه لكنه لم يتمكن بعد من استعادة عافيته، فهولا يقوى على الحركة ولا يقوم أبدا من فراشه بسبب معاناته من تداعيات الجفاف الذي أصابه جرّاء العطش الشديد وضربات الشمس التي تعرض لها. بالكاد يستطيع أن يتكلم ، حتى آرميا أعجزته الحيلة في أن يجد له علاجا فعَّالا يخفف آلامه ويعيد النشاط لأعضائه وقد استنفذ في ذلك كل الأعشاب والأدوية التي كانت بحوزته.

ذات مساء، أحس آبيثار ببعض التحسن و القدرة على الكلام، فطلب من أهله وعشيرته أن يجتمعوا عنده، ليقص عليهم تفاصيل رحلته الطويلة والمريرة بالكامل، وحكى لهم كل ما وقع له من أوَّل يوم فارقهم فيه، وحتى عودته إليهم محمولا على الأكتاف، كان هدفه من ذلك أن يستخلصوا حكمة الرب وجزاءه العادل الذي قسمه بينه وبين أخيه آرميا، فكان أمامهم خير مثال لمن اختار أن يمشي في الطريق القويم تحت رعاية الرب وعلى خطى الأنبياء والصالحين، وبين من أزاغه الشيطان وسار في طريق الشر حتى كان فريسة سهلة للغواية، وقبل أن يختم كلامه، كان له رجاء عند أخيه آرميا ألا يترك ابنه ياكين ليتربى ويترعرع وسط معابد الشرك و مجتمعات

الضلال وأن يعاهده أمام الله أن يعمل ما في وسعه ليأتي به من سدوم ويعود به إلى أرض أبيه حتى يكبر وسط إخوته وتحت رعاية عمه، فهو خير من يحفظه ويعلمه دين التوحيد ووصايا الحكيم، وطلب منه ألاّ يذهب إليهم بنفسه وإنما يبعث أحد التجار الذين اعتادوا دخول سدوم ويسأل عن رجل عبراني اسمه شيت صاحب الخان، فيعرض عليه بعض المال فإنه سيأتيه به لا محالة، لأن شيت هذا دينه وديدنه الذهب والفضة ولن يتوانى في فعل أي شيء نظيرهما، خصوصا وأن كاهن المعبد لن يرفض أن يبيعهم الطفل فهو لا يزال رضيعا ولن ينفعهم في شيء على كل حال، أخبره أيضا أنه يمكنه التأكد من أن الطفل الذي سيأتيه به شيت هو ياكين ويتعرف عليه من خلال شامة سوداء تحت إبطه وقلادة أبيهما التي عليها اسمه والمصنوعة من الياقوت الأحمر ، فلا أحد من أطفال سدوم كلها يحمل مثلها.

أقسم آرميا لأخيه أن يعيد ياكين إلى كنفهم، وألاّ يتهاون في ذلك فهو ابن اخيه وحفيد الحكيم نازر ولن يتركه عرضة لتربية الشيطان مهما كلفه ذلك من جهد ومال.

هدأت نفس آبيثار وسكن روعه وذهب جزعه على ابنه، فهو يعلم أن آرميا رجل صالح، إذا وعدَ أوفى وإذا عاهدَ صدقَ، وكانت وصيته الأخير له، إذا عاد بولده أن يعهد به إلى زوجته أديفا لترعاه وتربيه وتتخذه ولدا لها، فهي لم تنجب له وكثيرا ما كان ذلك الأمر يحزنها ويبكيها، ولربما أراد

القدر أن يواسيها بـياكين لتكون له أمًّا حنونًا صالحة في صغره ويكون هو سندا لها وتقر به عينها في كبرها .

كأن حملا ثقيلا انزاح أخيرا من على صدره، وعرفت السكينة طريقها إلى قلبه، أصبح آبيثار في قمة الرضا وهو يرى أهله وعشيرته محيطين به وأطفاله متحلقين حوله، وأخوه آرميا يدعو له ويصلي من أجله، وزوجتيه تنادمانه وتهونان عليه مصابه، لكنه لم يكد ينعم براحته النفسية تلك حتى اشتدت آلامه وجف ريقه، وما هي إلاّ لحظات قليلة حتى غارت عيناه في محجريهما وأسلم روحه إلى بارئها بعدما أعلن توبته ورجاءه أن تكون آلامه وعذاباته تلك مكفرة لذنوبه، وأن تكون قربات يعتذر بها عنده ربه الواحد.

كان لوفاة آبيثار وقعا كبيرا في نفوس كل أهله وعشيرته، فقد كانوا يمنون النفس بأن يمهله القدر حتى يرى ابنه ياكين وهو بينهم، لكن مشيئة الله هي الغالبة، ولا راد لقضائه.

أعد آرميا لأخيه مدفنا قرب مدفن أبويه في مغارة التراب الأبيض، وأقام له مراسيم جنازة تليق به، وصلّى من أجله كثيرا ، فيما قامت زوجتيه بتوزيع خبز ولحم ثور على الفقراء وعابري السبيل، كان حزن آرميا على مفارقة أخيه شديدا، وفي غمرة حزنه ذاك تذكر ياكين وعاهد نفسه أن يعود به لأرض أبيه قبل أن يجف قبره.

لم يكد يمر اليوم الأول على وفاة آبيثار حتى خرج آرميا قاصدا ملتقى القوافل على الجانب الشرقي من وادي عربة، ذهب يبحث أو لا عن توما التاجر فهو صديقه وأقدر الناس على مساعدته في بلوغ مقصده، لم يتأخر كثيرا حتى وجده، ولم يصدق توما عينيه من شدة الفرح وهو يرى آرميا الحكيم، يقفه أمامه، بل كادت الفرحة تطير به من مكانه لولا أنه رأى تقاسيم الحزن والقلق تعلو وجه ضيفه، فسأله على الفور :

- ما الخطب يا أخي هل كل شيء على ما يرام، فوالله ما خرجت من أرضك وقدمت إلينا إلاّ لخطب عظيم؟

أخبره آرميا بموت أخيه آبيثار وبخروجه بحثا عن ابن اخيه الذي تركه مستعبدا في سدوم وعن حاجته الماسة لمساعدته.

لم يتردد توما التاجر في ابداء كامل استعداده لمساعدة صديقه آرميا في مهمته، فلطالما كانت له ولوالده من قبله أفضال عليه وعلى كثير من التجار وعابري السبيل ممن تقطعت بهم السبل في الصحراء أو كانوا ضحية قطاع الطرق، ثم إنه يعرف شيت صاحب الخان جيدا، فهو تماما كما وصفه آبيثار رحمه الله رجل لا شيء أحب إليه أكثر من المال، وسيفعل أي شيء يطلبونه منه مقابل بضع قطع ذهبية.

لم يضيعا وقتا وانطلقا سريعا متجهين إلى سدوم التي تفصلهم عنها مسيرة ثلاثة أيام على الخيل، قطعوها في أقل من ذلك، وها هو آرميا يقف مندهشا من علو أسوارها وضخامة أبراجها وعظمة أبوابها حتى أنه تهيّب دخولها،

كان يحدث نفسه ويقول هذه المدينة التي كانت ممعنة في الكفر والفسق هي من أغوت آبيثار وجعلته يسلك طريق الشيطان ولولا الألطاف الإلهية لمات على خطيئته.

لم يكن قد مضى وقت طويل على خروج كدر لعومر وقواته من المدينة، بعدما أنهى المهمة التي أوكلت إليه بنجاح، وأخضع سدوم وأخواتها وحمل معه مالا يعد ولا يحصى من الذهب والفضة وعائدا إلى بابل، وقد خلّف وراءه آلاف القتلى والنساء الثكلى والأرامل والأطفال اليتامى.

طلب توما التاجر من آرميا أن يبقى خارج المدينة ينتظره حتى يعود إليه بالطفل، فلا داعي لأن يدخل معه حتى لا يجلب الانظار باعتباره غريبا وغير معروف للتجار هناك، بينما يتولى هو الأمر كله.

دخل توما إلى المدينة وقصد مباشرة خان شيت هذا الأخير كان يعرفه جيدا وما إن رآه حتى قفز إليه عانقه ورحّب به، ثم جلسا معا إلى طاولة، وأخذا يتبادلان أطراف الحديث، كان شيت متذمرا من القوانين الجديدة التي فرضها عليهم البابليون، والتي ضيّقت عليهم عيشهم وذهبت ببحبوحتهم ورخائهم، وكان يتحسر على أيام بارع التي ولّت إلى غير رجعة لدرجة أن هذا الحال جعله يفكر في بيع الخان والعودة إلى كنعان، كان توما التاجر ينصت له باهتمام، وانتظر حتى انهى حديثه ثم قال له:

- ما رأيك في عشرين قطعة ذهبية، تأخذها حالا عدّا ونقدا.

فَغَرَ شيت فاه وسال لعابه، بمجرد سماعه بذلك المبلغ الكبير فكيف به إذا صار في جيبه، وسأل توما: في مقابل ماذا قل بسرعة؟

أخبره توما بأنه يريده أن يبتاع له طفلا رضيعا يصفه له من المعبد.

عرف شيت بدهائه أن الطفل المقصود هو ابن آبيثار، و أخبر توما بذلك وزاد بالقول أنه يعرف أن توما التاجر الكبير لن يكلف نفسه عناء ابتياع طفل رضيع وهو يملك من الجواري والعبيد ما يفيض عن حاجته، إلاّ إذا كان ذلك الطفل يساوي أضعاف ثمنه.

فهم توما من كلام شيت أنه يريد أن يساومه ليرفع من قيمة المبلغ، فوعده بأن يزيده خمس قطع إذا أتاه به فورا، وحتى لا يطمع كثيرا، أخبره بأن آبيثار قد مات، وأن عمّ الطفل هو من سيدفع الثمن، ولن يزيد أكثر إن بالغ في طلباته، ولربما صرف النظر عن الأمر كله. أبدى شيت بعض الأسف المشوب بالنفاق على موت آبيثار ، ثم استأذن من توما أن ينتظره بالخان لحين أن يقوم هو بجس نبض الكاهن، ربما يقبل أن يبيعه الطفل بذلك المبلغ.

كان شيت العبراني يجيد التزلف والتملق للسادة وكبار التجار وكان حسن المنطق وشديد الذكاء، وسرعان ما أقنع الكاهن بأن يبيعه الطفل مقابل خمس قطع ذهبية فقط بحجة أن هناك تاجراً من مصر يريد أن يبتاعه ليقدمه هدية لزوجته العاقر التي لا تلد.

لم يكن الكاهن ليمانع فخمس قطع ذهبية تعد مبلغا كبيرا مقابل طفل رضيع لا يصلح لشيء، ويحتاج كثيرا من الجهد والتعب والغذاء ليكبر ويغدوشابا يصلح للخدمة أو الحرب.

اخذ شيت الطفل من الكاهن وسلّمه المبلغ، ورجع به مسرعا إلى بيته، وأمر خادمته أن تعد له جرابا يصلح لحمله والسفر به لمسافة طويلة، وتركه معها ثم عاد إلى الخان لملاقاة توما وهو يتصنّع مظاهر الأسف والحيرة، أخبره أنه أقنع الكاهن بصعوبة بالغة أن يبيعه الطفل لكن هذا الأخير اشترط خمسين قطعة ذهبية ثمنا له.

اندهش توما من ضخامة المبلغ الذي طلبه شيت فقد كان مقتنعا، أن الكاهن لن يصل طمعه إلى هذا الحد، وأن هذه لا تعدو أن تكون سوى حيلة من حيل شيت الرخيصة، فهو يعرف جشعه. تظاهر "توما" بزهده في الطفل، وبأنه لن يدفع أكثر من ثلاثين قطعة ذهبية، وهو مبلغ يكفي لشراء بيت كبير وليس مجرد طفل رضيع لا ينفع في شيء. أخذ شيت المبلغ واختفى قليلا عن الأنظار ثم عاد إليه بالطفل، مطالبا بعمولته من العملية والتي لا يجب أن تقل عن خمس قطع ذهبية، ضحك توما من كلامه وقال له:

- خذها إذن من الكاهن فهو من يجب أن يدفع لك لأنك عقدت له صفقة رابحة وليس أنا، وإذا شئت أذهب معك حالا لأكلمه.

أبدى شيت بعض التذمر ثم عدل سريعا عن طلبه محاولا إيهام توما أنه قام بهذه الخدمة إكراما لصديقه وليس طمعا في المال.

خرج توما التاجر من خان شيت حاملا معه طفل آبيثار، بعدما تأكد من وجود الشامة السوداء تحت إبطه والقلادة ذات الياقوت الأحمر كما وصفها له آرميا، ثم ركب فرسه وانطلق مسرعا به إلى حيث كان ينتظره عند بوابة سدوم.

لم يصدق آرميا نفسه وهو يرى ابن أخيه الرضيع بين يديه، بل ولم يتصور أبدا أن يتم الأمر بهذه السرعة وبهذه السهولة أيضا ومقابل ثلاثين قطعة ذهبية فقط، أحس بعاطفة قوية تجذبه نحوياكين تأكد أنه هو ابن أخيه حتى قبل أن يرى الشامة السوداء والقلادة، فإحساسه الصادق لم يكن ليكذب عليه، ثم توجه بكلمات الشكر والامتنان لصديقه توما التاجر الذي لولاه لما عرف كيف يتصرف، ولا أين يذهب في هذه المدينة المتوحشة، خصوصا مع كل ما سمعه منه ومن أخيه عن شيت صاحب الخان وألاعيبه.

ضحك توما من كلام آرميا وطلب منه أن يأخذ قسطا من الراحة والنوم قبل أن يواصلا مسيرهما في طريق العودة مع أول الليل.

على الجانب الآخر من وادي عربة وسط الصحراء كانت أديفا تنتظر عودة حماها آرميا ومعه طفلها، نعم فمنذ أن علمت بوصية زوجها وهي تشعر أن ياكين هو ابنها حتى قبل أن تراه، فقد انتظرته لسنوات طويلة، وألقى الله

محبته في قلبها كأنها أمه التي حملت به وولدته، كانت لهفتها عليه كبيرة وسعادتها لا تصوف وهي تخيط له ملابس الشتاء من القطن والصوف وتهيئ له مرقده بجانب مرقدها.

هاهو يوم أخر ينقضي، أسبوع بكامله منذ خروج آرميا، والشمس تميل إلى المغيب، وأديفا لا زالت تترقب.

منذ ثلاثة أيام وهي تخرج كل صباح إلى التلة مترقبة وصول آرميا أخيرا لمحت طيفه قادما من بعيد نعم، إنها هيئته ذاك آرميا صرخت من فرحتها وأسرعت إليه لتستقبله، وما كاد يصل إلى البيت ويترجل من على دابته حتى ارتمت عليه وانتزعت الطفل من يديه، وهوينظر إليها مبتسما ومستغربا في الآن نفسه.أخبرته زوجته أنها ظلت لأيام تنتظر عودته ومعه ياكين كأنها تنتظر جائزة من السماء، كأن القدر اختار أن يعوضها عن سنين الحرمان ويواسيها بمن يؤنس وحدتها ويملأ فراغ قلبها.

انشغلت أديفا تماما بولدها الذي أهداه إياها آبيثار كانت تضمه بحنان غريب بين أحضانها، أغرقته بالقبل وبللت وجهه الصغير بدموعها حتى أغمي عليها من شدة الفرح.لم تكن لوحدها في ذلك فقد عمّت الفرحة جميع من في البيت بعودة ياكين الصغير إليهم، والذي كان لهم فيه عزاء كبير عوضهم عن فقدان آبيثار ، أما آرميا فقد تركهم وصعد إلى مغارة التراب الأبيض في رأس الجبل، بلّل قبر والديه نازر وراهين بماء الزهر ثم وقف على قبر أخيه آبيثار صلّى من أجله كثيرا ودعا له بالرحمة والغفران، ولسانه

يقول : الآن يا أخي يستطيع بدنك المثخن بالآلام والجراح أن يستريح من العناء والآن فقط فلترقد روحك بسلام.

انتهت

شروحات مهمة

1- الإله بعل:

بعل اسم سامي معناه "الرب" أو "السيد" هو إله أسطوري عَبَدَه أهل الشرق القديم معتقدين أنه ابن الإله "ايل" وزوج الآلهة "بعلة" أو "عشتروت" أو "عشتار" وهي أسماء تمثل جميعها إلهة الحب والجنس والجمال والأنوثة والخصوبة عند البابليين والفنيقيين وغيرها من حضارات الشرق القديم .

ورد اسم بعل بصيغ عدة حسب مكان عبادته مثل "بعل فغور" و"بعل عقرون" و"بعل هداد" و"بعل صور" و"بعل آمون"، وكان أهم إله لدى الكنعانيين، وكانوا يعتبرونه إله الحرب والخصب، لهذا صوروه على هيئة المحارب حامل السلاح، وأخذت مدينة "بعلبك" اللبنانية اسمها اشتقاقا من اسم الإله بعل وذلك لخصوبة سهل بعلبك واخضراره الدائم أما عند الفينيقيين فكان يعتبر إله الشمس، وفي الأساطير الموروثة عن حضارة أوغاريت (مملكة سوريا القديمة) فكان هوإله الرزق واهب المطر، صوته الرعد ونوره البرق، وهو مجري الرياح وصاحب الزوابع والعواصف .

انتشرت عبادته حتى وصلت روما غربا وعرف فيها باسم (جوبتير هليوبوليتانس) و(جوبتير دوليخانوس) ونقله الفينيقيون إلى قرطاج وسادت عبادته شمال إفريقيا كلها تحت اسم "بعل هامون".

انتقلت عبادته من الأمم الوثنية قديما خصوصا في كنعان إلى العبرانيين ومنهم إلى اليهود وكان اسمه في العبرية "بعليم" واتفق اغلب المؤرخين أنه هو نفسه بعل الذي عبده بنو إسرائيل زمن مملكة إسرائيل معتقدين أنه هو ابن الله الذي يسمونه "إيل" وهومن توسط لأنبياء الله ابراهيم ويعقوب واسحاق عند أبيه الإله "إيل" من أجل أن يمنحهم الذرية والنسل، وورد ذكره في سفر القضاة من العهد القديم (التوراة) في الإصحاح الثاني الآية 11 و13: " وفعل بنو اسرائيل الشّرّ في عيني الرب وعبدوا البعليم، وتركوا الرَّبّ إلهَ آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتروت"، بينما ورد ذكر الإله بعل في القرآن الكريم مرة واحدة، وذلك في سورة الصافات التي وردت بها قصة النبي "إلياس" وتحديدا الآيات من123 إلى 124 "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (123) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ (124) أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ". صدق الله العظيم

2- سدوم وعمورة وصبوئيم وأدومة وصوغر

هي مدن ورد ذكرها بشكل غير مباشر في القرآن الكريم وبشكل مباشر في العهد القديم أو التوراة (سفر التكوين)، وحسب آخر الاكتشافات الجيولوجية فإن تاريخ هذه المدن يعود إلى العهد البرونزي (1500 –

3500) سنة قبل الميلاد، ويعتقد الدارسون للتوراة والباحثون الجيولوجيون، أن موقعها الجغرافي يتحدد في الضفة الشرقية لنهر الأردن شمال البحر الميت حاليا الذي سمي قديما ببحيرة "لوط"، ويسود اعتقاد قوي أن سدوم وعمورة غارقتان تحته وهما أكبر تلك المدن فيما تعتبر صوغر أصغرها وقد اشتقت اسمها من صغر حجم مساحتها وعرفت أيضا باسم "بالع" حسب المصادر التوراتية. وسدوم في القرآن هي مدينة النبي "لوط" عليه السلام التي أهلكها الله بأن قلبها رأسا على عقب فأصبح عاليها سافلها ثم أمطرها بسيل من الحجارة، عقابا لأهلها عما كانوا يقترفونه من آثام وفواحش منكرة ومنافية للفطرة الانسانية السليمة.

3- متشولاخ: أو الصالح مَتُوشَلَخَ بن خنوخ اسم عبري لأحد الأبناء الصالحين للنبي إدريس عليه السلام.

4- أخنوخ بن يارد: ويقصد به النبي ادريس عليه السلام، ونسبه الكامل هوأخنوخ بن يارد بن مهلاييل بن قينن بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام.

5-أرض كنعان: هواسم سامي ويقصد به الأرض التي استوطنها أبناء كنعان بن حام حفيد النبي نوج عليه السلام، ويعود تاريخها إلى العصر البرونزي،

وتشمل حاليا كل من فلسطين ولبنان و بعض المناطق جنوب سوريا وغرب الأردن.

6- كدر لعومر: ومعناه بالعربية "عبد لعومر"، فكلمة "كدر " تعني "عبد" أما "لعومر" فهي إلهة "عيلامية" قديمة، وكدر لعومر وهوشخصية توراتية، وردت في الاصحاح 14 من سفر التكوين.

7- أمرافل: اسم باللغة الأكدية أو السومرية، وقد شرح معناه بعض الدارسين بـ : "يتكلم بأمور خفية"، أو " تكلم الرب" وقد ذهبت بعض المراجع التاريخية إلى حد القول أنه هونفسه "حمورابي"، ملك بابل الشهير صاحب الشرائع.

8-عمق السديم: هومكان قيل أنه كان جنوب وادي الأردن، ويوجد حاليا تحت البحر الميت، كان فيه حفر الكبريت والقطران.

9-الفطيرة المقدسة: عرفت عند اليهود انتقلت إليهم من الطقوس الوثنية التي وردت في شرائعهم خصوصا ما يعرف بـ "التلمود"، حيث نجد أنه ورد فيه : "ومن يسفك دم غير يهودي فإنما يقدم قرباناً للرب"، وورد أيضا "اقتل الصالح من غير الإسرائيليين" ويقول أيضا "يحل بقر الاممي كما تبقر

بطون الأسماك ،حتى وفي يوم الصوم الكبير الواقع في أيام السبوت" ثم يقرر الثواب على ذلك بالقول والكلام من التلمود دائما " من يقتل أجنبيا – أي غير يهودي – يكافأ بالخلود في الفردوس والإقامة في قصر الرابع"... ومن ثم فإن فكرة الفطيرة المقدسة تقوم أساسا على الحصول على دم آدمي خصوصا دم الأطفال غير اليهود لأنهم يكونون بدون ذنوب ولا خطايا، ويكون آباؤهم من الصالحين وخلطه بالدقيق، وعادة ما يحصل ذلك خلال احتفالاتهم بعيد "البوريم" أو عيد "الفصح".

محتويات الكتاب

- الإهداء	4
- كلمة المؤلف	5
خروج نازر	7
عسل سدوم المسموم	21
أمرافل يضمد جراح بابل	32
على طريق الغواية والهداية	44
أسود بابل تكشر عن أنيابها	53
ثامار وسدوم والنصر المزعوم	67
سدوم وطقوس المجون	80
آبيثار وكأس النار	91
الهدوء الذي يسبق العاصفة	102
ليلة الحب والحرب والموت	113
عمورة وسدوم والقدر المحتوم	126

صوغر وصبوئيم والانتصار الصغير	138
قوة الدهاء ومرارة الهزيمة	150
ساعة الحقيقة	164
طريق العودة الشاق	177
شروحات مهمة	193

تمت بحمد الله

الممالك الملعونة

رواية

محمد غربي العزيزي

الطبعة الأولى

1442 هـ 2020 م

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد

جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com